إِعْجَازُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
وَأَثَرُهُ فِي النُّفُوسِ

إعداد الدكتور

ربيع يوسف شحاته الجهمي

الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن الكريم

في جامعة الأزهر، المشارك في جامعة تبوك

١٤٤١هـ = ٢٠١٩م

إعجاز القرآن الكريم
وأثره في النفوس

أ.د.م/ ربيع يوسف شحاته الجهمي
أستاذ مساعد في التفسير والعلوم القرآنية بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية بجامعة الأزهر
البريد الإليكتروني : rabie.Youssef@azhar.edu.eg

ملخص البحث

يأتي هذا البحث ليثبت أثر إعجاز القرآن في تحقيق قيمة من أعظم القيم، وهي قيمة الأمن النفسي، والتي تعد ضرورة من أهم ضرورات الحياة. وقد جعلته بعنوان:

إعجاز القرآن الكريم وأثره في النفوس

حيث كان لإعجاز القرآن الكريم من وقت نزوله أعظم الأثر في النفوس والقلوب، ولا يزال أثره باقيا ما تعاقب الليل والنهار، لقد هال العرب إعجازه، وأثَّر فيهم أول ما قرعت آياته مسامعهم، فسيطر علىٰ قلوبهم ونفوسهم، فأَمِنت واطمأنت وسكنت للحظات، فنطقت ألسنة بعضهم بالحق، من آمن منهم، ومن لم يؤمن، فللقرآن علىٰ القلوب والنفوس سلطان لا يقاوم متىٰ خُلّي بينه وبينها ولو للحظات.

ولم يكن أثر إعجازه قاصرا علىٰ عصر التنزيل، بل إنه ممتد إلىٰ قيام الساعة، لأن وجوه إعجازه متجددة كل يوم، ولا يبلىٰ منها قديم، وهذا ما نراه واضحا فيمن اعتنقوا الإسلام علىٰ مر التاريخ، حتىٰ في عصرنا الحاضر،

لقد بهرهم إعجازه فآمنوا مقتنعين أنه وحي إلهي، فسكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم.

وإن قيمة الأمن النفسي من أعظم القيم، بل من أعظم النعم، والمحافظة عليها من أجل الأعمال، لأنه لا سعادة ولا هناءة للإنسان بدونها، مهما زاد غناؤه وعظم ثراؤه؛ خاصة في هذا الزمان الذي كثر فيه القلق والتوتر والاضطراب.

*** ***

Miracles of the Holy Quran
and its effect on the Souls

Name: Rabie Yosof Shehata ALghmy**.**
E-mail: rabie.Youssef@azhar.edu.eg
Assistant Professor of Interpretation and Quranic Sciences at the Faculty of Islamic and Arab Studies for Girls in Alexandria, At Al-Azhar University

Research Summary

This research comes to prove the effect of the miracle of the Qur'an on achieving one of the greatest values, which is the value of psychological security, which is one of the most important necessities of life. It made it entitled: (The Miracle of the Holy Quran and its effect on achieving psychological security).
The miracle of the Noble Qur'an from the time of its descent had the greatest effect on the souls and hearts, and its impact remains for what happened day and night. The Arabs were horrified by its miracle, and the first signs of their verses read their hearts, so he controlled their hearts and souls. Whoever believes in them, and whoever does not believe, the Qur'an has over hearts and

souls, an authority that does not resist when it has been emptied between it and even for a moment.

And the effect of his miracle was not limited to the era of download. Rather, it extends to the establishment of the Hour, because the faces of his miracle are renewed every day, and they do not wear out of old ones, and this is what we see clearly in those who have embraced Islam throughout history, even in our time, they have been dazzled by its miracle, so they are convinced that it is Divine revelation, their souls settled, and their hearts reassured.

The value of psychological security is one of the greatest values, but rather one of the greatest blessings, and preserving it for the sake of deeds, because there is no happiness or happiness for man without it, no matter how much his wealth increases and the wealth of his wealth increases, especially in this time of great anxiety, stress and turmoil

Key words : Ijaz - The Holy Quran - Psychological Security

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ أشرف الخلق وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وبعد ....

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد، وحجته البالغة، ودستوره العظيم، ومعجزته الكبرىٰ الباقية إلىٰ يوم الدين، فتح الله به قلوبا غلفا، وأعينا عميا، وآذانا صما، وأخرج الناس به من الظلمات إلىٰ النور، وهداهم إلىٰ صراط مستقيم. ومن يوم أن نزل القرآن علىٰ قلب النبي ﷺ وهو منبع الهداية، وموطن السكينة، وراحة النفس، وطمأنينة القلب، ولذة الفؤاد.

ولقد كان لإعجازه أعظم الأثر في النفوس والقلوب من وقت نزوله، ولا يزال أثره باقيا ما تعاقب الليل والنهار؛ كيف لا، وهو الكتاب الذي "أحكمت آياته، وفصلّت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته علىٰ كل مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كلَّ البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، أتاهم النبي ﷺ به وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً، بلغتهم التي بها يتحاورون، صارخًا بهم في كل حين، ومقرعًا لهم بضعًا وعشرين عامًا علىٰ رؤوس الملأ أجمعين :﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨]، وهم في

كل هذا عاجزون عن معارضته، أو مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب والتكذيب، وقد قال الله لهم زيادة في التحدي: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾، فما فعلوا، ولا قدروا، بل ولوا عنه مدبرين، وأتوا مذعنين ما بين مهتدٍ وبين مفتون"[1].

ومع شدة عنادهم وجحودهم إلا أن إعجازه قد قهرهم وأثَّر في نفوسهم أول ما قرعت آياته مسامعهم، فنطقت ألسنة أكابرهم بالحق إنصافا للقرآن، من آمن منهم، ومن لم يؤمن، فللقرآن علىٰ النفوس سلطان لا يقاوم متىٰ خُلّي بينه وبينها.

ولما كان القرآن الكريم محفوظا بحفظ الله تعالىٰ وباقيا أبد الدهر، وأنه الدعوة والمعجزة، كانت وجوه إعجازه متعددة ومتجددة، وكانت آثارها في النفوس متعددة ومتجددة أيضا في كل زمان؛ لأن الناس مختلفون في جهات تأثرهم بإعجازه، فمنهم من يقنعه إعجازه اللغوي، ومنهم من يسيطر عليه إعجازه التشريعي، ومنهم من يبهره إعجازه العلمي، ومنهم من يهوله إعجازه التاريخي، وكذا إعجازه الغيبي، ومنهم من يستولي عليه إعجازه النفسي، وهكذا .... لكل إنسان مشرب ومورد، والقرآن الكريم يحوي كل ذلك وزيادة، ويترك في نفوس الكل جلالا ومهابة وروعة لا تقاوم، حتىٰ فيمن لا يفهمه. فسبحان من هذا كلامه!!وتبارك من هذا بيانه!!.

ولقد قصَّ الله تعالىٰ في كتابه الكريم مشاهد عظيمة لآثار إعجازه في النفوس، في نفوس الجن، وفي نفوس أهل الكتاب، وفي نفوس المؤمنين، وفي نفوس العجم المعاصرين؛ من استمعوا إليه أو قرأوه، حتىٰ إنه بجلاله ومهابته، وروعته وعظمته ليملك النفوس والقلوب ويسيطر عليها؛ فيثمر فيها إيمانا لا يرتد، وراحة واطمئنانا، وسكينة وخشوعا، وخشية وخضوعا.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ للقاضي عياض: ١/ ٢٦٠، ٢٦١، بتصرف واختصار.

ولا يزال هذا الأثر العظيم باقيا وممتدا إلىٰ قيام الساعة، يشعر بذلك ويحياه كل مؤمن تقي، ويدل عليه في أرض الواقع في عصرنا الحاضر: مواكب العلماء والباحثين وعامة الناس، الذين يقبلون علىٰ الإسلام كل يوم، منبهرين بإعجازه، ومهتدين بأنواره.

ويأتي هذا البحث ليبين طرفا من تلك الآثار العظيمة التي ذكرها القرآن الكريم، في نفوس المشركين، وأهل الكتاب، والجن، والمؤمنين، وقد جعلته بعنوان:

(إعجاز القرآن الكريم وأثره في النفوس)

** **أسباب اختيار الموضوع:** كان من أهم أسباب اختيار هذا الموضوع:

١- توفيق الله تعالىٰ ومشيئته العلية، فهو الذي شرح صدري له، وحببه إلىٰ نفسي، وذلل لي الصعاب في معالجته.

٢- الرغبة في خدمة كتاب الله تعالىٰ.

٣- المساهمة في إثراء المكتبة القرآنية بهذا البحث، حيث لم أجد -بعد بحث دقيق- دراسة تفسيرية تحليلية لآثار إعجاز القرآن في النفوس.

** **الدراسات السابقة:**

بعد بحث دقيق لم أجد دراسة تتطابق مع عنوان البحث الحالي أو محتواه، وقد وجدت بعد البحث بعض الدراسات التي جاء عنوانها قريبا من عنوان البحث الحالي، لكنها تختلف عنه في محتواها، وفي تناولها، وفي معالجاتها، وهي علىٰ النحو الآتي:

١- الإعجاز النفسي في الخطاب القرآني: وهي رسالة دكتوراه، للباحث: قويدر قيطون، مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علوم الأدب الحديث والمعاصر، في قسم الآداب واللغة العربية، بكلية الآداب، بجامعة قسطنطينة، بالجزائر، ٢٠١٥م.

وقد جاءت في مقدمة وسبعة فصول: الأول: بين الإعجاز القرآني والبلاغة وعلم النفس، الثاني: النفس ومفهومها في الإسلام، الثالث: نشأة الإعجاز النفسي وتطوره، ، الرابع: الكلمة القرآنية وأهميتها في التأثير النفسي، الخامس: طرائق القرآن في تأثيره في النفوس، السادس: الإيحاءات النفسية لبعض أساليب البلاغة العربية في القرآن، السابع: الخطاب النفسي في سورة الواقعة.

تعقيب: واضح من العرض السابق لخطة هذه الرسالة أن الجهة منفكة بينها وبين البحث الحالي.

٢- الإعجاز النفسي في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية: وهي رسالة ماجستير للباحث: عبدالله أبو السعود، مقدمة للحصول علىٰ درجة الماجستير في التفسير، بكلية الدراسات العليا، بالجامعة الأردنية ٢٠٠٥م.

وجاءت في تمهيد وثلاثة فصول، الأول: مقدمات في الإعجاز النفسي، الثاني: الإعجاز النفسي وخفايا النفس الإنسانية، الثالث: الإعجاز النفسي في أحكام الشريعة.

تعقيب: واضح أيضا من العرض السابق لخطة هذه الرسالة أن الجهة منفكة بينها وبين البحث الحالي.

٣- الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم: وهو بحث للدكتور/ زياد عواد أبو حماد، مجلة جامعة دمشق، مجلد (١٨)، عدد (١)، ٢٠٠٢م.

وجاء في مقدمة وأربعة مباحث: الأول: الإعجاز التأثيري عند العلماء، الثاني: الروح والنفس والقلب في اللغة والقرآن، الثالث: أثر القرآن في حياة الفرد والمجتمع، الرابع: القرآن الكريم وواقعنا المعاصر.

تعقيب: واضح أيضا من العرض السابق لخطة هذا البحث أن الجهة منفكة بينه وبين البحث الحالي.

٤- تأثير القرآن في نفوس سامعيه: وهو بحث للدكتور/ محسن سميع الخالدي، منشور بمجلة الجامعة الإسلامية العالمية، بماليزيا، مجلد (٥) عدد (١) يونيو ٢٠٠٨م،

وجاء في مقدمة وأربعة مطالب: الأول: الإعجاز الروحي والنفسي، الثاني: تأثير القرآن في الجماد والنبات، الثالث: حمل سامع القرآن علىٰ الدخول في الإسلام، الرابع: تأثير القرآن في المشركين الذين ماتوا وهم كفار.

تعقيب: وهذا البحث ربما يظن من عنوانه قربه من البحث الحالي، لكن بالنظر في محتواه وجدت أنه في مجمله كلام عام، غير متخصص في التفسير وعلوم القرآن، كما أنه موجز في أكثره إلىٰ حد الإخلال. فمثلا في المطلب الأول: (الإعجاز الروحي والنفسي) لم يستشهد إلا بآية واحدة هي قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وعلق عليها تعليقا مقتضبا في سطرين، ولا علاقة له بتفسيرها وبيان معانيها وهداياتها. وأما في المطلب الثاني: فلم يستشهد أحيانا بشيء من القرآن، كما فعل في بيان تأثير القرآن في النبات، أو استشهد بآيات لا علاقة لها بالموضوع، كما صنع في الاستشهاد علىٰ تأثير القرآن في الحيوان؛ حيث استشهد بقوله تعالىٰ: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٦ – ١٩]. وكذلك المطلب الثالث: حيث علق

تعليقات مقتضبة لا تفي بالغرض علىٰ ما استشهد به من آيات، علىٰ قلتها، وفي المطلب الرابع ذكر بعض الروايات مع تعليق عام أيضا.

وعليه: فالجهة منفكة بين هذا البحث وبين البحث الحالي. كما أن البحث الحالي يتناول آثار إعجاز القرآن في النفوس، وليس من شأنه بيان آثاره في الجماد أو الحيوان أو النبات.

٥- ملامح الإعجاز النفسي في القرآن الكريم: وهو بحث للدكتور/ بلقاسم محمد الغالي، منشور بمجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مجلد (٤)، عدد (١)، فبراير ٢٠٠٧م.

وجاء في مقدمة وثلاثة مباحث: الأول: معجزة القرآن الكريم، الثاني: النفس ومفهومها في الإسلام، الثالث: الإعجاز النفسي في القرآن. وذكر تحته هذه العناوين: تعريف الإعجاز النفسي في القرآن، الإعجاز النفسي في الدراسات السابقة، آيات القرآن في العلاج النفسي، العلاج بالقرآن مظهر من مظاهر الإعجاز النفسي، القرآن علاج نفسي، وقائع تثبت الإعجاز النفسي للقرآن، وتحت هذا العنوان الأخير ذكر نماذج مختصرة جدا من العرب الأوائل ومن المعاصرين.

تعقيب: واضح من هذا العرض لخطة هذا البحث أن الجهة منفكة بينه وبين البحث الحالي.

*** * خطة البحث:**

قسمت هذا البحث إلىٰ مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة علىٰ النحو الآتي:

التمهيد: مقدمات حول إعجاز القرآن الكريم.

المبحث الأول: معجزات الأنبياء السابقين وأثرها في النفوس.

المبحث الثاني: أثر إعجاز القرآن الكريم في النفوس.

وفيه تمهيد وخمسة مطالب:

المطلب الأول: أثر إعجاز القرآن في نفوس المشركين.

المطلب الثاني: أثر إعجاز القرآن في نفوس أهل الكتاب.

المطلب الثالث: أثر إعجاز القرآن في نفوس الجن.

المطلب الرابع: أثر إعجاز القرآن في نفوس المؤمنين.

المطلب الخامس: أثر إعجاز القرآن في نفوس غير المسلمين من العجم المعاصرين.

وأما **الخاتمة:** ففيها أهم النتائج والتوصيات.

*** * منهج البحث:**

سرت في هذا البحث علىٰ المنهجين: التحليلي، والاستنباطي، حيث حللت النصوص الواردة فيه -قدر الإمكان- بما يفي بالغرض الذي سيقت لأجله، واستنبطت منها الدلالات التي تتصل بموضوع البحث.

والله تعالىٰ أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يعفو عن تقصيري وزللي، فإني بشر أصيب وأخطئ، فما كان من صواب فمن فضل الله تعالىٰ علي وكرمه، وما كان من خطأ فمن نفسي، ويعلم ربي أني ما تعمدت التقصير، وحسن ظني في الله تعالىٰ أن المجتهد مأجور علىٰ الحالين، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [هود: ٨٨]. والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

دكتور/ **ربيع يوسف شحاته الجهمي**
الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن الكريم
في جامعة الأزهر، المشارك في جامعة تبوك
١٤٤١هـ = ٢٠١٩م

التمهيد

(مقدمات حول إعجاز القرآن الكريم)

أولا: تعريف الإعجاز:

أما في اللغة: فالإعجاز "إفعال" من العجز، قال ابن فارس: "(عَجَزَ) الْعَيْنُ وَالْجِيمُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الضَّعْفِ، وَالْآخَرُ عَلَىٰ مُؤَخَّرِ الشَّيْءِ. فَالأَوَّلُ: عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فَهُوَ عَاجِزٌ، أَيْ ضَعِيفٌ. وَقَوْلُهُمْ إِنَّ الْعَجْزَ نَقِيضُ الْحَزْمِ فَمِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهُ يَضْعُفُ رَأْيُهُ. وَيَقُولُونَ: " الْمَرْءُ يَعْجِزُ لا مَحَالَةَ ". وَيُقَالُ: أَعْجَزَنِي فُلَانٌ، إِذَا عَجِزْتُ عَنْ طَلَبِهِ وَإِدْرَاكِهِ. وَلَنْ يُعْجِزَ اللهَ - تَعَالَىٰ - شَيْءٌ، أَيْ لا يَعْجِزُ اللهُ - تَعَالَىٰ - عَنْهُ مَتَىٰ شَاءَ. وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾[الجن: ١٢] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[العنكبوت: ٢٢] . وَيَقُولُونَ: عَجَزَ بِفَتْحِ الْجِيمِ"(١).

- وأما في الاصطلاح: فإن "إعجاز القرآن الكريم مركب إضافي معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير: إعجازُ القرآنِ خَلْقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به، ولكن التعجيز المذكور ليس مقصودًا لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صدق.

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: ٤/ ٢٣٢، مادة (عجز). ويراجع: لسان العرب لابن منظور: ٥/ ٣٩٦.

وكذلك الشأن في كل معجزات الأنبياء، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن للازمه وهو دلالتها علىٰ أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله تعالىٰ. فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات إلىٰ شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر، لحكمة عالية، وهىٰ إرشادهم إلىٰ تصديق من جاء بها، ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة"[1].

ثانيا: أهمية علم الإعجاز:

لا ريب أن لعلم الإعجاز أعظم الأهمية؛ لأنه العلم الذي يناط به إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ فهو الذي يتناول بيان المعجزة، وإعجاز القرآن الكريم ووجوهه، كما أن إعجاز القرآن الكريم هو الباب الأعظم لدخول الناس في دين الله أفواجًا؛ قال الله تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: ١]. وقال ﷺ: (ما من الأنبياءِ نبيٍّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مثْله آمن عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحيًا أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[2].

ولهذا جاءت شهادات العلماء تترىٰ مؤكدة أهمية هذا العلم الجليل:

قال الزركشي: "وهو علم جليل، عظيم القدر؛ لأن نبوة النبي ﷺ معجزتها الباقية القرآن، وهو يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز"[3]. وقال السيوطي: "أفرده بالتصنيف خلائق؛ منهم الخطابي، والرماني، والزملكاني،

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني: ٢/ ٢٣٨، ٢٣٩..

(٢) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل: ٨/ ٦١٩، ح(٤٩٨١). عن أبىٰ هريرة ﷺ.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٢/ ٩٠.

والرازي، والقاضي أبو بكر الباقلاني"[(١)]. وقال الشيخ محمد رشيد رضا: "... الكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعًا، وهو من فروض الكفاية"[(٢)]. وقال العلامة محمود شاكر: "ومعرفة معنىٰ إعجاز القرآن وما هو، وكيف كان، أمر لا غنىٰ عنه لمسلم، ولا لدارس، وشأنه أعظم من أن يتكلم فيه امرؤ بغير تثبت من معناه، وتمكن من تاريخه، وتتبع الآيات الدالة علىٰ حقيقته"[(٣)].

ثالثا: وجوه إعجاز القرآن الكريم:

لقد تبارىٰ علماؤنا الأجلاء - قديما وحديثا - في استنباط وجوه إعجاز القرآن الكريم، وصالوا في ذلك وجالوا، وحققوا وجوها عظيمة، في مؤلفات كثيرة، قدمت خدمة جليلة لكتاب الله تعالىٰ، ومن هذه الوجوه:

(إعجازه في بلاغته وفصاحته، وإعجازه في نظمه وأسلوبه، وإعجاز في إخباره بالغيوب المستقبلة، وإعجازه في إخباره عن القرون السابقة والأمم البائدة، والإعجاز النفسي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي) وغيرها من وجوه الإعجاز.

والذي عليه المحققون من العلماء أن وجوه إعجاز القرآن الكريم لا تنتهي ولا تتناهىٰ، بل يتجدد منها في كل عصر ما يبهر العقول ويأخذ بالألباب. وقد ذكر السيوطي منها في كتابه: (معترك الأقران في إعجاز القرآن) خمسة وثلاثين وجها، ثم قال: "... أنهىٰ بعضهم وجوه إعجازه إلىٰ ثمانين... والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه"[(٤)].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٤/ ٣.

(٢) مقدمة الشيخ رشيد رضا لكتاب "إعجاز القرآن" لمصطفىٰ صادق الرافعىٰ: ١٤.

(٣) مقدمة الشيخ محمود شاكر لكتاب "الظاهرة القرآنية"، لمالك بن نبىٰ: ٢٦، ٢٧.

(٤) معترك الأقران للسيوطي: ١/ ٥، ويراجع: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٠٦.

ومع تعدد وجوه الإعجاز وكثرتها، فإن المحققين من العلماء علىٰ أن الإعجاز واقع ومتحقق بكل وجه من الوجوه، فكل وجه منها معجز في ذاته، وحجة في نفسه. قال أبو حيان التوحيدي: "لم أسمع كلامًا أَلْصَق بالقلب وأَعْلَق بالنفس من فصل تكلم به بُندار بن الحسين الفارسي -وكان بحرًا في العلم – وقد سئل عن موضع الإعجاز من القرآن فقال: هذه مسألة فيها حيف علىٰ المفتي، وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متىٰ أشرت إلىٰ جُمْلته فقد حققته، ودللت علىٰ ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلىٰ شيء منه إلا وكان ذلك المعنىٰ آيةً في نفسه، ومَعْجَزةً لمحاوِله، وهدىً لقائله؛ وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده"[1].

رابعا: أثر إعجاز القرآن الكريم في النفوس:

ومن جلال القرآن الكريم وجماله صنيعه في النفوس والقلوب، فإن من يسمعه أو يقرؤه تأخذه الروعة والمهابة، وإن لم يكن عربيا، فإن صادف ذلك قلبا خاليا من الكبر والعناد لم يتردد في الإيمان به، وذاك تأثير إعجازي خاص بالقرآن الكريم.

وقد تنبه لذلك أئمتنا القدامىٰ[2]، وعدوه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، فها هو الخطابي يقول: "قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلىٰ القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرىٰ ما يخلص منه إليه. تستبشر به النفوس وتنشرح له

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٠٠.

(٢) وتبعهم المتأخرون والمُحْدثون أيضا.

الصدور، وتقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلىٰ مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانا". ثم ذكر من شواهد ذلك قصة إسلام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه"[(١)].

ونبه عليه القاضي عياض، حيث قال: "ومنها: -أي وجوه إعجاز القرآن- الروعة التي تلحق قلوبَ سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيْبَة التي تعْتَريهم عند تلاوته، لقوة حاله وإبانة خطره، وهي علىٰ المكذبين به أعظم، حتىٰ كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفوراً، كما قال تعالىٰ، ويودّون انقطاعه لكراهتهم له، وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابًا، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه، وتصديقه به، قال تعالىٰ: ﴿نَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. ويدل علىٰ هذا أيضا شيء آخر خُصّ به القرآن الكريم، وهو أنه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره من الروعة والهيبة ما يعتريه، ومنه ما روي عن نصراني أنه مر بقارئ فوقف يبكي، فقيل له: مِمّ بكيت، قال: للشجاعة والنظم"[(٢)].

وعدَّه السيوطي الوجه العشرين من وجوه إعجاز القرآن، ونقل كلام القاضي هذا[(٣)].

****

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي: ص: ٧٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ: ١/ ٢٧٣، ٢٧٤. باختصار

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ١٨٢، ١٨٢.

المبحث الأول

معجزات الأنبياء السابقين

وأثرها في النفوس

اقتضت حكمة الله تعالىٰ أن يؤيد أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام بمعجزات تكون حجة وبرهانا علىٰ صدقهم فيما يبلغون عنه سبحانه وتعالىٰ؛ لتطمئن نفوس الناس إليهم،

وقد عرف العلماء المعجزة بأنها: "أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة يخلقه الله تعالىٰ علىٰ يد مدعي النبوة عند دعواه إياها شاهدا علىٰ صدقه"[1].

فالمعجزة أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، لأنه خارج عن حدود الأسباب المعروفة لهم جميعا، يظهره الله تعالىٰ علىٰ يد النبي، شاهدا علىٰ صدقه، وبرهانا علىٰ أنه مبعوث من ربه.

وكانت معجزة كل نبي مناسبة لعصره، ومن جنس ما برع فيه قومه، وقد وقع التحدي لهم جميعا فرادىٰ ومجتمعين؛ لتقوم عليهم الحجة من كل باب، وقد قامت، فلم تثبت منهم أي معارضة لأي نبي أو رسول، والقرآن الكريم شاهد علىٰ ذلك، بل كان منهم العجز التام ممن جحد وعاند، والتسليم الكامل والإذعان والقبول ممن صدق وآمن؛ لأن المعجزة أعظم وأقوىٰ وسيلة للإقناع، ولا يسع عاقل بعد معاينتها إلا أن يعلن إيمانه، إلا أن يكون جاحدا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ١/ ٧٣، ويراجع: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٤/ ٣. ويراجع: شرح المقاصد للتفتازاني: ٣/ ٧٦.

مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

وكان لمعجزاتهم عليهم السلام من الآثار العظيمة ما لا يخفىٰ، حيث أثمرت أمنا في النفوس واطمئنانا في القلوب، فلم تكن مجرد انتصار منهم علىٰ المعاندين من أقوامهم أو إفحامهم، ولم يكن هذا من غاياتها أو أهدافها، بل كانت طريقا واضحة، وحججا دامغة؛ لأجل هدايتهم، والأخذ بأيديهم من مستنقعات الكفر والضلال إلىٰ نور الإيمان، علىٰ يد أرأف خلق الله بعباده، من بعثهم الله تعالىٰ ليدعوا الناس بالقول اللين والحكمة والموعظة الحسنة، كانت حججا محملة بالإيمان داعية إليه من أقرب طريق.

ومن شواهد ذلك: معجزة العصا لسيدنا موسىٰ عليه السلام وما صنعته في نفوس سحرة فرعون:

فإنهم لما عاينوا تلك المعجزة أثمر الإعجاز في نفوسهم سكينة، وفي قلوبهم طمأنينة، وفي صدورهم انشراحا، فضحوا بمناصبهم وأموالهم، بل ضحوا بأرواحهم، وأعلنوا إيمانهم.

قال الله تعالىٰ في سياق قصة موسىٰ عليه السلام واصفا هذا المشهد العظيم، في سورة الشعراء: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا

نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٥١].

وقال تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[الأعراف: ١١٣ – ١٢٦].

وقال تعالىٰ في سورة طه: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه: ٦٥ – ٧٣].

لقد جاء أولئك السحرة إلىٰ هذا اللقاء الحاسم وتلك المناظرة الفاصلة وهم أحرص الناس علىٰ الفوز فيها، والظفر بما وعدوا به من حظوظ الدنيا، فهم الموعودون بالأجر الوفير والحظوة والقرب من فرعون؛

ومن هو فرعون؟! إنه أقوىٰ ملك علىٰ وجه الأرض في عصره، ولهذا أعدوا عدتهم علىٰ أكمل ما يستطيعون، وحضروا لهذا المشهد العظيم وهم علىٰ أعلىٰ درجة من الأهبة والاستعداد، وجماهير الناس حضور في انتظار انتصارهم وفوزهم، حتىٰ لقد أوجس موسىٰ عليه السلام في نفسه لمَّا ألقىٰ السحرة عصيهم ورأىٰ الناسَ قد فزعوا من هول ما صنع السحرة، فخشي عليه السلام أن ينخدع الناس بهم وينصرفوا قبل مشاهدة المعجزة.

وما أن شاهد أولئك السحرة المعجزة وعاينوها حتىٰ زالت كل شبهة كانت في نفوسهم، وأيقنوا من أول وهلة أن موسىٰ عليه السلام صادق فيما يبلغ عن ربه، حتىٰ إنه من شدة ما نزل بهم من اليقين لم يسعفهم القول كي ينطقوا بلفظ الإيمان؛ فخروا سجدا لله رب العالمين رب موسىٰ وهارون، ثم أظهروا الإيمان باللسان.

إنه الإيمان حين تلامس أنواره خلجات النفوس، وتخالط بشاشته حنايا القلوب. اطمأنت قلوبهم، وسكنت نفوسهم، واستقر اليقين في شغاف قلوبهم، واستصغروا كل شيء واحتقروه أمام عظمة وجلال الإيمان، حتىٰ فرعون احتقروه، وهم أعرف الناس به وبجبروته وانتقامه، احتقروه ولم يعيروه اهتماما، وصدعوا بكلمة الحق في وجهه دون خوف أو قلق أو وجل أو اضطراب.

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء].

قال صاحب الكشاف: "سبحان الله! ما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقائين"(١).

أما فرعون فقد توعدهم أشد الوعيد، وألقاه علىٰ مسامعهم علىٰ رؤوس الأشهاد، زيادة في التهديد والتنكيل، لعلهم يرجعون، حيث قال لهم:

(١) الكشاف: ٣/ ٧٥.

﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١]. وقال أيضا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[الأعراف: ١٢٣، ١٢٤].

توعدهم فرعون - عليه اللعنة - بالتعذيب والتمثيل بهم أحياء حتىٰ الموت، ويا له من وعيد شديد تنهار أمامه كل القوىٰ، ولو أنه توعدهم بالقتل فقط فثبتوا علىٰ الإيمان لقلنا شجاعة نادرة، أما وإنه توعدهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: بقطع إحدىٰ اليدين وإحدىٰ الرجلين، ثم الصلب حتىٰ الموت، فثبتوا!!، إنه لإيمان لا يهتز ويقين لا يتزعزع، تقف دونه كل شجاعة.

توعدهم فرعون بهذا الوعيد الرهيب فما زادهم ذلك إلا ثباتا علىٰ الإيمان. وعلىٰ رؤوس الأشهاد أيضا ردوا عليه في اطمئنان نفس ورباطة جأش ويقين قلب، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢، ٧٣]. وقالوا أيضا: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[الأعراف: ١٢٥، ١٢٦]. وقالوا أيضا: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾[الشعراء: ٥٠ - ٥١].

صغرت الدنيا في أعينهم، فهانت عليهم، وخرجت من قلوبهم، وطلقوها طلقة بائنة، وآثروا ما عند الله تعالىٰ، وسألوه سبحانه أن يفرغ عليهم صبرا، وأن يثبتهم علىٰ الإيمان، وأن يغفر لهم ما سبق من الخطايا والذنوب، وأن يتوفاهم مسلمين، وسلموا أمرهم لله رب العالمين، ولم يجزعوا أو يضطربوا مما توعدهم به فرعون. وسياق الآيات يدل علىٰ أنهم

قد بقوا علىٰ ثباتهم حتىٰ لاقوا ذلك المصير!!!. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء"(١).

إنه الاستقرار النفسي والهدوء القلبي الذي أثمره الإعجاز في قلوبهم ونفوسهم، ولولا هذا الإعجاز الذي عاينوه ما وصلوا لهذه الدرجة العليا من الإيمان والثبات النفسي والانفعالي حتىٰ أخذوا هذا القرار المصيري العصيب، وإلا فقد دعاهم موسىٰ عليه السلام إلىٰ الإيمان من قبل وما أعاروه انتباها، بل ناصبوه العداء.

وخلاصة القول: أن معجزة العصا لموسىٰ -عليه السلام- كان لها الأثر العظيم في نفوس المعاندين من قومه، فضلا عن عامة الناس الذين لولا خوفهم من فرعون وحاشيته لأعلنوا إيمانهم جميعا!!؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[يونس: ٨٣].

وهكذا كل معجزة من معجزات الأنبياء السابقين كان لها عظيم الأثر في النفوس، لكن ذلك كان في وقت المعجزة فحسب، وللقوم المقصودين بها.

أما القرآن الكريم فإنه المعجزة الكبرىٰ العامة، الباقية ما تعاقب الجديدان، لا تخلق علىٰ كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبها.

(١) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٣/ ٣٦. عن ابن عباس وقتادة ومجاهد.

المبحث الثاني
أثر إعجاز القرآن في النفوس

تمهيد:

تبين مما سبق أن معجزات الأنبياء السابقين كان لها أثر عظيم في طمأنة النفوس وسكينة القلوب، غير أن ذلك كان أمنا وقتيا ومحدودا، كان وقتيا في عصره فقط، ومحدودا بأولئك القوم، فلم يتأثر بها إلا من شاهدها، حتىٰ إنهم بعد فترة نسوا المعجزات، وحرَّفوا الكتب؛ لأن الحجة غابت عن الحس، وما غاب عن الحس غاب عن النفس، يمثلهم في ذلك قوم سيدنا موسىٰ عليه السلام، الذين رأوا المعجزة فاطمأنوا بها وآمنوا، لكنهم بمجرد عبورهم البحر معه مروا علىٰ قوم يعبدون الأصنام، فتناسوا كل شيء، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف: ١٣٨] !!!.

ولهذا انتهت معجزات الأنبياء السابقين بانتهاء أزمانهم، ولم يبق لها أثر أو خبر صحيح إلا في كتاب الله تعالىٰ.

أما القرآن الكريم فإن الأمر فيه مختلف تماما؛ إنه كتاب الرسالة العامة للثقلين، الخاتمة لكل الرسالات، الذي تكفل منزله سبحانه بحفظه، وضم إليه معجزته، فجعله الدعوة والمعجزة، ولم يكن ذلك لأي كتاب سبق.

"فمن عِظَمِ قدر القرآن الكريم أن الله تعالىٰ خصه بأنه الدعوة والحجة، ولم يكن هذا لنبي قط، إنما يكون لكل منهم عليهم الصلاة والسلام دعوة، ثم يكون له حجة غيرها، وقد جمعهما الله تعالىٰ لرسوله ﷺ في القرآن، وكفىٰ الدعوة شرفًا أن تكون حجتها معها، وكفىٰ حجتها شرفًا أن لا تنفصل عنها"[1].

---

(١) الإسلام دين الله تعالىٰ وفطرته التي فطر الناس عليها لأبي العزائم: ص٩٩. ويراجع: أسرار القرآن له: ٦/ ٧، ٨، ٤٣، ٩/ ٢١٣٦.

فالقرآن الكريم محفوظ بحفظ الله تعالىٰ، وإعجازه قائم عليه ما تعاقب الليل والنهار، ووجوه إعجازه متعددة ومتجددة، ولا يبلىٰ منها قديم، بل يبقىٰ ما ظهر منها علىٰ جدته، ويظهر كل يوم منها جديد؛ لتبقىٰ الرسالة محروسة بالمعجزة، فلأهل اللغة فيه وجوه إعجاز، ولأهل التشريع فيه وجوه إعجاز، ولأهل التاريخ فيه وجوه إعجاز، ولأهل العلوم المادية فيه وجوه إعجاز، .... وهكذا... لأن المخاطبين به مختلفون في الأجناس والعلوم والمعارف والأزمان والأماكن، ولهذا كان القرآن الكريم معجزا من كل جهة، لأنه آخر رسالة لهدي الأرض.

وإذا كانت وجوه إعجاز القرآن متعددة ومتجددة؛ فإن الآثار العظيمة لها باقية ومتجددة أيضا، وعلىٰ رأسها: أثره المعجز في النفوس.

ولا يظنن ظان أن آثار الإعجاز في القلوب والنفوس إنما كانت في عصر التنزيل؛ لأن الواقع يكذب ذلك، أو أن الحديث عنها أصبح من نافلة القول؛ لأن الحديث عنها وثيق الصلة بالحديث عن الإيمان، لأنه يزيد في إيمان المؤمنين، ويفتح باب الإيمان لغيرهم، إذا استقامت الفطرة، وصفت النفس وتنزهت عن الجحود والنكران.

لقد كان – وما زال – للقرآن الكريم أعظم الأثر في كل من سمعه أو قرأه من الإنس والجن، من المؤمنين به والجاحدين له؛ كيف لا، وقد قال الله تعالىٰ عنه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الحشر: ٢١].

والمعنىٰ: "من شأن القرآن وعظمته، وجودة ألفاظه، وقوة مبانيه، وبلاغته، واشتماله علىٰ المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل علىٰ جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم خاشعا متصدعا، أي: متشققا من خشية الله سبحانه، حذرا

من عقابه، وخوفا من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخييل يقتضي علو شأن القرآن الكريم وقوة تأثيره في القلوب"[1].

ذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ :﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدت لفصاحته، وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا ﴾ [يوسف:٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر علىٰ مثل هذا الكلام[2].

وفي المطالب الآتية بيان بالشواهد لأثر هذا الإعجاز في النفوس

******

المطلب الأول
أثر إعجاز القرآن في نفوس المشركين

لقد بلغ من تأثير القرآن الكريم في نفوس المشركين العرب أنهم لم يستطيعوا – مع شدة حرصهم علىٰ الجحود – إخفاء ما أدركوه من إعجازه؛ فنطقت ألسنتهم بالحق رغما عنهم، فهم معدن البلاغة، وأئمة البيان، وفرسان الكلام، وجهابذة الفصاحة، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه، وقد سجل التاريخ شهاداتهم.

حيث تذكر كتب التاريخ والسير وغيرها ما كان لإعجاز القرآن الكريم من أثر فيهم أول ما قرعت آياته مسامعهم، فسيطر علىٰ نفوسهم، ولولا جحودهم ونكرانهم لآمنوا أجمعين، فمع ما حكاه الله تعالىٰ عنهم من نهيهم عن سماع القرآن وتواصيهم باللغو فيه كما في قول تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(١) فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٢٤٦.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ القاضي عياض: ١/ ٢٦٢.

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦] إلا أن جلاله وعظمة إعجازه قد تركا فيهم أثرا سجله التاريخ، شهادات حق ممن آمن منهم، وممن لم يؤمن.

والملاحظ أن الآثار المسندة في هذا الباب علىٰ أهميتها قليلة جدا، ولا ضير في ذلك، فإن القرآن الكريم موجود بين أظهرنا، وإعجازه باق ومتجدد، والتحدي به قائم ما تعاقب الليل والنهار، والمتأثرون بإعجازه لا ينتهون، حتىٰ صار ذلك أمرا معلوما بالضرورة، وهذا في حد ذاته خير دليل وبرهان.

(أ) شواهد على أثر الإعجاز في نفوس من بقي علىٰ شركه ولم يسلم:

لقد هال المشركين إعجاز القرآن الكريم، حين استمعوا إليه؛ فوجدوا فيه الفصاحة التي لم يعرفوها، والبيان الذي لم يألفوه، فهزهم هزا عنيفا، وأقض مضاجعهم، وهزمهم هزيمة نكراء، مع أنهم العرب الخلص، الذين لا يشق لهم غبار في الفصاحة البيان!!، فنطقت ألسنتهم بالحق رغم الجحود، مترجمة عما هالهم من الهيبة والجلال، وما عاينوه من الروعة والبيان، ومن أولئك:

١- أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق:

تذكر كتب السيرة أن ثلاثتهم قد تسللوا ليلا منفردين، مختفين عن الأعين، علىٰ غير موعد، ليستمعوا لتلاوة النبي ﷺ وهو يصلّي من الليل في جوف بيته، حتىٰ أخذ كل واحد منهم مجلسًا يستمع فيه، ولا يعلم أحدهم بمكان صاحبه، ومن شدة وقع القرآن الكريم في نفوسهم باتوا ليلهم كله وهم يستمعون القرآن!!!، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق وتلاوموا، فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم

لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا حتىٰ إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلىٰ مجلسه، فباتوا ليلتهم أيضا كاملة يستمعون القرآن!!!، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أوّل مرّة، ثم انصرفوا، حتىٰ إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل واحد منهم مجلسه، فباتوا ليلتهم أيضا كاملة يستمعون القرآن!!!، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتىٰ نتعاهد ألّا نعود، فتعاهدوا علىٰ ذلك، ثم تفرّقوا.

فلما أصبح الأخنس ذهب إلىٰ أبي سفيان يسأله عما سمع فقال خيراً، ثم خرج حتىٰ أتىٰ أبا جهل فدخل عليه فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تحاذينا علىٰ الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء! فمتىٰ ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه(١).

كانت هذه قصة أولئك النفر من قريش أهل الفصاحة وفرسان البيان مع القرآن الكريم، والسؤال الآن: ما الذي جعل أولئك العرب الخلص من المشركين المعاندين يبيتون ثلاث ليال لا تكتحل فيها أعينهم بنوم يستمعون القرآن؟ ما الذي أثر في نفوسهم حتىٰ فارقوا فراشهم وظلوا يتلذذون بسماع القرآن الكريم طيلة الليالي الثلاث؟ والجواب واضح، إنه

(١) القصة أخرجها البيهقي في دلائل النبوة: في جماع أبواب المبعث، باب: اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالىٰ من الإعجاز، وأنه لا يشبه شيئا من لغاتهم، مع مونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان: ٢/ ٢٠٦، ٢٠٧، وذكرت في السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣١٥، ٣١٦، والخصائص الكبرىٰ للسيوطي: ١/ ١٩٢، وسبل الهدىٰ والرشاد، للصالحي: ٢/ ٣٥٢.

الإعجاز، إعجاز القرآن الكريم الذي سيطر علىٰ نفوسهم وعقولهم؛ فظلت الليل كله تستمع القرآن، إنها بلاغة القرآن التي بلغت الحد الخارق لعادات الإنس والجن، ولكن يا لخيبتهم!! منعهم عن الإيمان الكبر والجحود.

٢- الوليد بن المغيرة:

وهو من أشد المشركين عنادا وأذىٰ، والمقدَّم في قريش بلاغة وفصاحة، يأتي إلىٰ رسول الله ﷺفيقرأ عليه قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠]، ومن جمال القرآن وروعته وهيبته يقول الوليد: أعد، فيعيده النبي ﷺ فينطق الوليد بالحق الأبلج، ويقول قولته المشهورة: (والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر)، فلما بلغ ذلك أبا جهل أتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، فقال الوليد: لِمَ؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرَّض لما قِبَلَه(١)، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا! قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟!، (فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلىٰ عليه، وإنه ليحطم ما تحته!!). قال: لا يرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه!!. قال: فدعني حتىٰ أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره!! فنزلت ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾[المدثر: ١١](٢).

(١) أي: أتيت محمدا تريد شيئا من العطاء من جهته.

(٢) القصة أخرجها البيهقي في دلائل النبوة: في جماع أبواب المبعث، باب: اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالىٰ من الإعجاز: ٢/ ١٩٨، ١٩٩، وذكرت في السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٧٠، ٢٧١، والخصائص الكبرىٰ للسيوطي: ١/

هذه الشهادة التي سطرها التاريخ لتدل دلالة قوية علىٰ الأثر العظيم لإعجاز القرآن الكريم في نفوس المشركين، من العرب الخُلَّص، حين استمع بعضهم لبعض آياته الكريمات!!. فملكت عليه نفسه وعقله، وطَيَّرت لُبَّه. إنه الإعجاز الذي أدركه بفطرته البليغة الفصيحة، فنطق لسانه بالحق، ولكن لأنه من أهل الشقاء ما لبث لحظات حتىٰ تراجع عن قوله هذا، عنادا وجحودا!!!.

٣- عتبة بن ربيعة:

وهو من سادة قريش، أرسلته قريش إلىٰ رسول الله ﷺ ليساوموه علىٰ أن يدع ما هو عليه ويترك دعوته علىٰ أن يقدّموا له ما يشاء ... حتىٰ إذا فرغ من مساومته قال له رسول الله ﷺ: (أَوَقَدْ فرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم قال: (فاسمع مني) قال: أفعل، فقرأ رسول الله ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ١ - ٥]. فلما سمعها عتبة أنصت إليه، وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، حتىٰ انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ موضع السجدة منها، فسجد وسجد معه عتبة، ثم قال له: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك). فقام عتبة إلىٰ أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط!، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش،

١٨٨، والمواهب اللدنية للقسطلاني: ٢/ ٢٤٣، وسبل الهدىٰ والرشاد، للصالحي: ٢/ ٣٥٤.

أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم"[(١)].

وهذه شهادة أخرىٰ سجلها التاريخ لأثر إعجاز القرآن الكريم في نفوس المشركين من العرب الخُلَّص، حين استمع بعضهم إلىٰ بعض آياته الكريمة، فلم يملك أن يكتم ما هجم علىٰ قلبه ونفسه من الروعة والمهابة، فاعترف أمام سادة قريش وكبرائهم بإعجاز القرآن الكريم. فللقرآن علىٰ النفوس سلطان خاصّ لا يقاوم، متىٰ خُلّي بينها وبينه ولو للحظات، لكنه الكفر الذي ركبوه، والجحود الذي أعمىٰ بصائرهم عن الإيمان.

(ب) شواهد على أثر الإعجاز في نفوس من ترك الشرك وأسلم:

وهؤلاء هم الفريق الثاني من أولئك العرب الخُلَّص، وهم المشركون الذين اهتدوا بنور الإيمان، حين استمعوا إلىٰ آيات القرآن الكريم، فأبهرهم إعجازه، وملك عليهم نفوسهم، وملأ قلوبهم سكينة واطمئنانا، وأثر فيهم أثر السيل العليل في الوادي الجديب، فلم يجحدوا أو يعاندوا أو يتعصبوا، وإنما أعلنوا إسلامهم، وتحدوا الشرك والمشركين، وسلموا قيادهم للنبي ﷺ.

---

(١) القصة: أخرجها البيهقي في دلائل النبوة: في جماع أبواب المبعث، باب: اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالىٰ من الإعجاز: ٢/ ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥.

ويراجع: السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٩٤، والخصائص الكبرىٰ للسيوطي: ١/ ١٩١، ١٩٢، والمواهب اللدنية للقسطلاني: ٢/ ٢٤١، ٢٤٢، وسبل الهدىٰ والرشاد، للصالحي: ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧.

ولا ريب أن شواهد ذلك كانت أكثر من أن تحصىٰ؛ ضرورة أن من آمن من أولئك العرب الأقحاح لم يؤمن إكراها أو تقليدا أو اتباعا من غير حجة أو برهان، كيف لا وهم فرسان البلاغة وأرباب الفصاحة والبيان، وقد عاصروا التنزيل، وكانوا أول من تحداهم الرسول ﷺ ومن شواهد ذلك:

١- سبب إسلام جبير بن مطعم:

ورد في الحديث الصحيح عن جبير بن مطعم قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ☺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الطور: ٣٥ – ٣٧] قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ)[(١)].

أي: قارب قلبه الطيران لمَّا سمع هذه الآيات؛ لما تضمنته من بليغ الحجة[(٢)]، "وكان جبير إذ ذاك مشركًا، جاء في فداء أسارىٰ بدر"[(٣)].

٢- سبب إسلام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ :

تذكر كتب التاريخ والسير في قصة إسلامه ﷺ ما كان من تأثر نفسه بإعجاز القرآن الكريم من أول لحظة قرع فيها سمعه، وما حل به من الأمن والاطمئنان والراحة والسكينة، وهو الشديد القوي المهاب في قومه، فدخل في دين الله، وأعز الله به الإسلام ﷺ .

فيُذكر في بعض الروايات أنه رضي الله عنه خرج يتعرض لرسول الله ﷺ فسمعه قائما يصلّي يقرأ (سورة الحاقة)، فجعل يعجب من تأليف القرآن وحسن نظمه، فرقّ له قلبه وبكىٰ، ودفعه ذلك إلىٰ الإسلام فأسلم[(١)].

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب: قوله تعالىٰ: (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس): ٦/ ١٤٠، ح(٤٨٥٤).

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني: ٧/ ٣٥٨.

(٣) الكوثر الجاري إلىٰ رياض أحاديث البخاري للكوراني: ٢/ ٣٩٥.

قال ابن كثير بعد ذكر هذه الرواية: فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالىٰ مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب ﷺ"(٢).

ويُذكر في بعضها أنه ﷺ خرج يريد قتل رسول الله ﷺ فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أفلا رجعت إلىٰ أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ وأخبره أن ختنه وابن عمه سعيد بن زيد وأخته فاطمة بنت الخطاب قد أسلموا، فرجع ﷺ إليهم، وكان عندهم خباب بن الأرتّ معه صحيفة فيها آيات من سورة طه يقرؤونها، فلمّا دخل قال: ما هذا الذي سمعت؟ وقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً علىٰ دينه، وبطش بسعيد، فقامت فاطمة تدافع عن زوجها فلطمها حتّىٰ سال الدم من وجهها، وعندها أعلماه أنهما قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، وليصنع ما بدا له، فلمّا رأىٰ ﷺ ما بأخته ندم علىٰ ما صنع، وطلب الصحيفة ليقرأ ما فيها، فطلبت منه أخته أن يغتسل، فقام واغتسل، فأعطته إياها، وفيها: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ ۝٤ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ ﴾ [طه: ١ – ٦]. فلما قرأها رضي الله عنه هدأت ثورته، وذابت حِدّته، وسطع أمامه نور المعجزة بما لا يستطيع دفعه، وقال: (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه) وذهب إلىٰ رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه(٣).

---

(١) القصة أخرجها: أحمد في مسنده: ١/ ٢١١، ح(١٠٤)، وذكرها: الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٦٢، ح(١٤٤٠٥) وقال: رجاله ثقات، إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر، والذهبي في تاريخ الإسلام: ١/ ١٠٤، وابن هشام في السيرة النبوية: ١/ ٣٤٦- ٣٤٨، والسيوطي في تاريخ الخلفاء: ص٩٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٨/ ٢٣٣.

(٣) القصة: أخرجها البيهقي في دلائل النبوة: في جماع أبواب المبعث، باب: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قرأ القرآن، وعلم إعجازه: ٢/ ٢١٦، ٢١٧.

والشاهد: أنه رضي الله عنه –علىٰ شدته وقوته– قد تأثر بإعجاز القرآن الكريم أول ما قرعت آياته سمعه، فاطمأن قلبه وهدأت نفسه، بعد أن كانت شديدة قاسية، فذهب إلىٰ الرسول ﷺ وأعلن إسلامه!!.

٣– سبب إسلام الطفيل بن عامر رضي الله عنه :

تذكر كتب السيرة في قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه أن إعجاز القرآن قد طمأن نفسه وملك عليه قلبه حين استمع لبعض آياته الكريمة، فإنه لما قدم مكة وعرفت قريش مكانته حذرته تحذيراً شديداً من سماع رسول الله ﷺ؛ حتىٰ بلغ به الأمر إلىٰ أن حشا القطن في أذنيه؛ لكي لا يسمع النبي ﷺ. يقول الطفيل: "فأبىٰ الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: وا ثَكْلَ أمي! والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفىٰ علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته... يقول: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت، وشهدت شهادة الحق[1].

إنه إعجاز القرآن الكريم!!!.

٤– سبب إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما :

تذكر كتب السيرة أيضا ما كان لإعجاز القرآن الكريم من أثر في نفس أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما.

فقد وقف أسيد بن حضير علىٰ مصعب وأسعد بن زرارة فقال: "ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٨٢، ٣٨٣.

فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع؛ فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره. قال: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن. فقالا: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين. ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلىٰ سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف علىٰ النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلىٰ أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، قال: فقام سعد مغضَبا مبادراً تخوفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: لقد جاءك والله سيد من وراءه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. قال: فقال له مصعب: أو تقعد، فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتهلله، ثم

قال لهما: وكيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلىٰ نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرىٰ فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتىٰ تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة[1].

هذه شواهد قليلة سجلها التاريخ عن أثر القرآن في نفوس العرب الأوائل، أهل الفصاحة والبيان، أول من تحداهم القرآن، وقد كانوا أحرص الناس علىٰ تكذيبه، لكنهم لم يقاوموا إعجازه الذي بهرهم وأذهب ألبابهم، فترجمت ألسنتهم رغما عنهم ما وقع في أنفسهم من الذهول، وقالوا كلمات حق وشهادات صدق -والفضل ما شهدت به الأعداء- استحقت أن يسجلها التاريخ، ولولا الجحود لأسلموا جميعا، ومن فورهم.

وهذا ما حدث مع من أسلم منهم، لقد أسلموا اختيارا بمجرد استماعهم لآياته الكريمات، بسبب ما عاينوه من روعة إعجازه، في بلاغته وفصاحته وبيانه، -وهم الأعداء الألداء-، ولولا ذلك ما تركوا الشرك بملذاته وشهواته واختاروا الإسلام.

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٤٣٥- ٤٣٧.

المطلب الثاني

أثر إعجاز القرآن في نفوس أهل الكتاب

تجلىٰ أثر إعجاز القرآن الكريم في نفوس أهل الكتاب أيضا؛ خاصة أهل العلم منهم، الذين تنزهت نفوسهم عن الجحود والنكران. وقد قص الله تعالىٰ علينا طرفا من هذا في كتابه الكريم، فمن ذلك:

أولا: قوله تعالىٰ:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

والآيات الكريمة واردة في سياق الثناء علىٰ القرآن الكريم، وتبكيت المشركين وتحقيرهم علىٰ عنادهم وتقاعسهم عن الإيمان به؛ وهي تسلية للنبي ﷺ أيضا. والشاهد فيها من أول قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾. والمعنىٰ: قل يا محمد ﷺ للمشركين آمِنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به، فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وتكذيبكم له لا يورثه نقصاً، فهو حق في نفسه، فإن آمنتم به كان الخير لكم، وإن لم تؤمنوا كان الشر والوبال عليكم، فالأمر في (آمِنوا) للتسوية بين إيمانهم وعدمه عند الله تعالىٰ. وفي ذلك إعراض عنهم، واحتقار لهم، وعدم اكتراث بهم وبإيمانهم[1].

ثم علل الله تعالىٰ ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .... ﴾ الآيات؛ وهي تسلية للنبي ﷺ.

(١) مستفاد من البحر المحيط: ٧/ ١٢٤، والتحرير والتنوير: ١٥/ ٢٣٢، وغيرهما.

والمعنىٰ: سواء آمنتم أو لم تؤمنوا فقد آمن من هو خير منكم، وهم أهل العلم بالله تعالىٰ من قبل نزول القرآن، وهم صالحوا أهل الكتاب، من اليهود والنصارىٰ. "إذا يتلىٰ عليهم هذا القرآن يخرّون سجدا؛ تعظيما له وتكريما، وعلما منهم بأنه من عند الله[1]. وفي هذا تعريض بأولئك المشركين الذين أعرضوا عن الإيمان بالقرآن الكريم[2].

ثم بيَّن الله تعالىٰ حال الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب حين استماعهم للقرآن؛ فقال عز من قائل: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾:

أي: إن الذين أوتوا العلم من قبل القرآن من أهل الكتاب إذا يتلىٰ عليهم يبادرون إلىٰ السجود مسرعين، فيسقطون علىٰ أذقانهم، ويهوون إلىٰ الأرض سجدا[3]؛ خشوعا وخضوعا لما عاينوه من إعجازه في روعته وجلاله وأخباره وأحكامه.

والمراد بالأذقان: قيل: الوجوه[4]، أي: الجباه، وعبر عنها بالأذقان: "لأن الذي يخر وهو قائم يخر لوجهه، فيكون أقرب الأشياء من وجهه إلىٰ

(١) جامع البيان للطبري: ١٧/ ٥٧٧.

(٢) التحرير والتنوير: ١٥/ ٢٣٣.

(٣) الخَّرُّ: السُّقُوطُ، وأَصلُه سُقُوطٌ يُسمَع مَعَه صَوْتٌ، ثمَّ كَثُرَ حَتَّىٰ استُعمِل فِي مُطْلَق السُّقُوط، يُقَال: خَرَّ البِنَاءُ، إِذا سَقَط، وخَرَّ يَخِرُّ خَرّاً: هَوَىٰ مِنْ عُلْوٍ إِلىٰ أَسفل، وخَرَّ لله سَاجِداً يَخِرُّ خُرُوراً، أَي سَقَط. [لسان العرب: ٤/ ٢٣٥، وتاج العروس: ١١/ ١٥٠. مادة (خرر)]. والتفسير البسيط للواحدي: ١٣/ ٥٠٨.

(٤) جامع البيان (١٧/ ٥٧٧).

الأرض هو الذَّقنُ، وهو مجتمع اللَّحْيَيْنِ"[(١)]. وقيل: المراد بها اللِّحَىٰ[(٢)]. فأطلق الذقن أو اللحية علىٰ الوجه مجازا من إطلاق الجزء علىٰ الكل.

وفي التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿يَخِرُّونَ﴾: بدل "يسجدون" دلالة علىٰ مسارعتهم إلىٰ ذلك حتىٰ إنهم ليسقطون تأثرا بالقرآن الكريم واستجابة له، فهم لا يسجدون ولكن يخرون، كأنهم من شدة ما يحصل لهم من الخشوع والخضوع عند الاستماع إليه يسقطون سقوط من ليس له اختيار، كما يدل التعبير بالمضارع علىٰ تجدد ذلك واستمراره منهم كلما استمعوا لآياته[(٣)].

وفي التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ رغم أن السجود لا يكون عليها، وإنما يكون علىٰ الجباه دلالة علىٰ شدة الخضوع بسبب ما تجلىٰ عليهم من عظمة القرآن وإعجازه، وفيه تعريض بالمشركين الذين أبوا إلا تكذيبه ومعاندته، وحرموا أنفسهم جحودا من شرف السجود طاعة لله تعالىٰ. واللام فيه بمعنىٰ "علىٰ"، أي: يخرون علىٰ الأذقان سجدا.

وسواء أريد بالأذقان الوجوه، أو أريد بها اللِّحَىٰ، فإن الوجوه أكرم ما في البدن، والإنسان مجبول علىٰ صيانة وجهه وإكرامه، كما أن اللِّحَىٰ محل الإكرام والعناية من الوجه أيضا، فإذا أذلوا وجوههم أو جباههم أو لحاهم

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣/ ٢٦٤، والتفسير البسيط للواحدي: ١٣/ ٥٠٦، ٥٠٧، وزاد المسير لابن الجوزي: ٣/ ٥٩ بتصرف وتلخيص.

(٢) جامع البيان (١٧/ ٥٧٧).

(٣) مستفاد من التفسير البسيط للواحدي: ١٣/ ٥٠٨، والكشاف: ٢/ ٦٩٩، ٧٠٠، والتفسير الكبير: ٢١/ ٤١٨، ونظم الدرر للبقاعي: ١١/ ٥٣٣، وإرشاد العقل السليم: ٥/ ١٩٩، والتحرير والتنوير: ١٥/ ٢٣٤. مع زيادات.

في التراب سجدا لله تعالىٰ كان ذلك دالا علىٰ شدة تواضعهم وخشوعهم وخضوعهم تأثرا بجلال القرآن وهيبته وروعته(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾: جمع ساجد، وهو في موضع الحال من ضمير (يخرون)، لبيان الغرض من هذا الخرور، وهو سجودهم تأثرا بعظمة القرآن وجلاله. وهو دال علىٰ أن خرورهم هذا ليس خرورا اضطراريًا، وإنما هو لأجل السجود خشية وخضوعا، وتعظيما وإجلالا للقرآن الكريم.

وفيه أيضا: أنهم لشدة تأثرهم حين استماعهم إلىٰ القرآن الكريم يخرون سجدا قبل أن يُقروا بالإيمان بألسنتهم، وبهذا قدموا الإقرار والإذعان بالفعل قبل القول، دلالة علىٰ سرعة الامتثال والطاعة، إذ لم يمهلوا أنفسهم لحظة يعبروا فيها باللسان عما أصابهم من الجلال والهيبة، بل بادروا بالهوي سجودا، كأن الفعل في هذه اللحظة أسرع وأوفىٰ بالدلالة من القول.

قال سهل التُّسْتَرِيّ رحمه الله: في قوله تعالىٰ: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧]: "لا يؤثر شيء علىٰ السر مثل ما يؤثر عليه سماع القرآن الكريم، فإن العبد إذا سمعه خشع سره، وأنار ذلك قلبَه بالبراهين الصادقة، وزين جوارحَه بالتذلل والانقياد"(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٨].

أي: يخرون للأذقان سجدا، وتنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من الإحساس بعظمة اللّه وصدق وعده، فينزهون الله تعالىٰ ويعظمونه علىٰ - وجه التجدد والاستمرار- عن تكذيب المكذِّبين بالقرآن الكريم. ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي: ويحمدون الله تعالىٰ أن كان وعده بإنزال القرآن وبعث

(١) مستفاد من المصادر السابقة: نفس المواضع. مع زيادات.

(٢) تفسير التستري لسهل بن عبد الله التستري: ص: ٩٦.

النبي ﷺ لمفعولا، لا خُلْفَ فيه، واللام للتأكيد[(١)]، أكدوا قولهم لقوة إيمانهم وتمام يقينهم.

"وعطف قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ علىٰ قوله: ﴿يَخِرُّونَ﴾ للإشارة إلىٰ أنهم يجمعون بين الفعل الدال علىٰ الخضوع والقول الدال علىٰ التنزيه والتعظيم، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]"[(٢)]،ثم يغلبهم التأثر بالقرآن الكريم فإذا دموعهم تنهمر معبرة عما أصابهم من هيبته وجلاله:

يقول تعالىٰ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩]

أي: ويهوون علىٰ الجباه سجدا، يبكون منهمرة عيونهم من شدة الخشية والخضوع لمواعظ القرآن الكريم!!، فإن النفوس مجبولة علىٰ البكاء تأثرا حين لا يسعفها التعبير باللسان عما يجيش فيها من المشاعر. وهو دليل علىٰ استمرار خرورهم للأذقان سجدا كلما استمعوا إلىٰ القرآن الكريم، يدل عليه التعبير بالمضارع (يخرون) و(يبكون).

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾: أي: ويزيدهم الاستماع إلىٰ القرآن خشوعا علىٰ خشوعهم. أي: كلما استمعوا إلىٰ القرآن الكريم حصل لهم خشوع جديد زيادة علىٰ خشوعهم السابق.

"ومن السنة سجود القارئ والمستمع له عند هذا الموضع؛ اقتداء بأولئك الساجدين، بحيث لا يذكر المسلم سجود أهل الكتاب عند سماع القرآن إلا وهو يرىٰ نفسه أجدر بالسجود عند تلاوته أو الاستماع إليه"[(٣)].

---

(١) زاد المسير: ٣/ ٥٩. بتصرف.

(٢) مستفاد من نظم الدرر: ١١/ ٥٣٥، والتحرير والتنوير: ١٥/ ٢٣٤.

(٣) التحرير والتنوير: ١٥/ ٢٣٥، بتصرف. ويراجع: المغني لابن قدامة: ١/ ٤٤٣.

ثانيا: قوله تعالىٰ:

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢ – ٨٥].

والآيات الكريمة واردة في سياق إبطال عقائد أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ وتفنيد قبائحهم، وفيها يبصِّر الله تعالىٰ نبيه ﷺ بمن هم أشد عداوة للمؤمنين ممن هم أقرب مودة إليهم؛ ليعلم من هم أقرب إلىٰ قبول الهدىٰ والاستجابة للحق، ممن هم أكثر جحودا وعنادا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ ﴾:

كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من قبائح اليهود، وأُكد بلام القسم زيادة في تقرير وتحقق مضمونه، والخطاب إما لسيد المخاطبين ﷺ وإما لكل أحد يصلح له؛ إيذانا بأن حالهم مما لا تخفىٰ علىٰ أحد من الناس[(١)].

وصف الله تعالىٰ جحود اليهود وعنادهم وصعوبة إجابتهم إلىٰ الحق، ولين عريكة النصارىٰ وسهولة ميلهم إلىٰ الإسلام، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، بل نبّه علىٰ زيادة عداوتهم بتقديمهم في الذكر علىٰ الذين أشركوا"[(٢)]. "وهذا خبر مطلق منسحب علىٰ الزمن كله، وهكذا هو الأمر حتىٰ الآن"[(٣)].

---

(١) روح المعاني للآلوسي: ٤/ ٤. بتصرف وزيادة.

(٢) الكشاف: ١/ ٦٦٨، بتصرف وزيادة.

(٣) المحرر الوجيز: ٢/ ٢٢٥.

والمعنىٰ: قسما لتجدن اليهود والمشركين أشد الناس جميعا عداوة للمؤمنين، وأصلبهم في ذلك. "وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود، ومباهتة للحق، وغمط للناس، وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيرا من الأنبياء حتىٰ هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسمُّوه وسحروه، وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلىٰ يوم القيامة"[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾:

قيل: إنه نزل في النجاشيّ ملك الحبشة وأصحابٍ له أسلموا معه، وكانوا نصارىٰ، وقيل: نزلت في نفرٍ قدِموا علىٰ رسول الله ﷺ من نصارىٰ الحبشة، فلما سمعوا القرآن أسلموا واتبعوا رسول الله ﷺ والقول بالعموم أوْلىٰ[(٢)].

والمعنىٰ: وقسما لتجدن أقرب الناس مودة للمؤمنين الذين قالوا إنا نصارىٰ، ثم بيَّن الله تعالىٰ سبب قربهم ومودتهم للمؤمنين؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾: أي: ذلك بسبب أن منهم ﴿قِسِّيسِينَ﴾ علماء، و﴿وَرُهْبَانًا﴾ عبَّادا[(٣)]، ووجود هؤلاء فيهم له سبب عظيم في صلاح أخلاقهم، ورقة قلوبهم.

والمعنىٰ: "ذلك بأن منهم أهل خشية وانقطاع إلىٰ الله وعبادة وإن لم يكونوا علىٰ هدىً، فهم يميلون إلىٰ أهل العبادة والخشية، وليس عند اليهود ولا كان قط أهل ديارات وصوامع وانقطاع عن الدنيا، بل هم معظِّمون لها،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٥٠.

(٢) يراجع: جامع البيان: ١٠/ ٤٩٩- ٥٠٢، وأسباب النزول للواحدي: ٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) يراجع: التفسير البسيط للواحدي: ٧/ ٤٩٤- ٤٩٦، والتبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم: ص١٥٣.

متطاولون في البنيان وأمور الدنيا، حتىٰ كأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يرىٰ فيهم زاهد"[1].

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾: أي: وبأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق وقوله، ويتواضعون ولا يتكبرون، وهذه الخصلة شاملة لكثير من أفراد جنسهم، وليس كذلك اليهود.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾: الضمير في (سَمِعُوا) ظاهره العموم، لكن معناه الخصوص فيمن آمن منهم، أما في صدر الآية في قرب المودة، في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ فهو عام فيهم[2].

وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه"[3]؛ ووضع الفيض موضع الامتلاء بإقامة المسبب مقام السبب، أي تمتلئ من الدمع؛ أو جُعلت أعينهم بأنفسها تفيض من أجل الدمع؛ والفائض: إنما هو الدمع؛ قصدا للمبالغة[4].

والمعنىٰ: وإذا سمعوا ما أُنزل علىٰ الرسول ﷺ من القرآن تأثروا بروعته وجلاله؛ فلانت له قلوبهم، ورقَّت له أفئدتهم، ففاضت أعينهم بالدمع؛ حيث لم يسعفها قول أو فعل يترجم عما جاش في أنفسهم من

---

(١) المحرر الوجيز: ٢/ ٢٢٦.

(٢) ملخص من المحرر الوجيز: ٢/ ٢٢٦، ٢٢٧.

(٣) جامع البيان: ١٠/ ٥٠٧.

(٤) الكشاف: ١/ ٧٦٠، وفتح القدير: ٢/ ٧٨.

مشاعر الإيمان، تأثرا بما سمعوه من القرآن، وما عرفوه من الحق، ولمسوه من الإعجاز. والتعبير بالمضارع (تفيض) يوحي بتجدد ذلك واستمراه منهم كلما استمعوا إلىٰ القرآن الكريم.

قال المفسرون: و(مِنْ) في ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيانية، لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا، ويجوز أن تكون للتبعيض، والمعنىٰ: أنهم عرفوا بعض الحق من استماعهم لبعض القرآن، ففاضت أعينهم بالدمع، وبلغ منهم هذا المبلغ، فكيف إذا استمعوا إليه وقرأوه كله؟!![1].

ولم يقف أثر القرآن الكريم فيهم عند هذا الفيض من الدمع –حتىٰ لا يظن ظان أنه كان تأثرا لحظيا لا أثر له غير ذلك–، وإنما تعداه إلىٰ إعلانهم الإيمان، ودعائهم الله تعالىٰ أن يكتبهم مع الشاهدين بهذا الحق الأبلج، وأن يسلكهم في سلك هذه الأمة المباركة الشاهدة علىٰ الأمم السابقة[2]؛ يقول تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم لم يكتفوا بذلك، وإنما أكدوا تمسكهم بالإيمان، فأعلنوا صراحة إنكارهم واستبعادهم علىٰ أنفسهم أن يعوِّقها عن الإيمان بهذا الدين عائق، أو يمنعها منه مانع، أو يصرفها صارف عن الطمع في رحمة الله تعالىٰ أن يدخلهم الجنة مع القوم الصالحين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة: ٨٤].

---

(١) الكشاف: ١/ ٦٧٠، ونقله غير واحد من المفسرين عنه.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل المعنىٰ: فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون بالإيمان، [يراجع: جامع البيان: ١٠/ ٥٠٩، ٥١٠، والنكت والعيون: ٢/ ٥٨] والأولىٰ أوْلىٰ، لدلالة القرآن عليه.

كأنهم يقولون: ما الذي يمنعنا عن الإيمان ويصدنا عن اتّباع الحق وقد لاح لنا الصواب وظهر الحق المنير؟!!. يقولون ذلك تأكيدا لصدقهم في إيمانهم. قال في البحر: "هذا إنكارٌ واستبعادٌ لانتفاء الإيمان منهم مع قيام موجبه وهو عرفان الحق"(١).

وهكذا بلغ أثر القرآن الكريم في نفوسهم حين جردوها من العصبية، واستمعوا إليه بقلوبهم... فاضت أعينهم بالدمع خشية وخشوعا!، وأعلنوا إيمانهم وأكدوه تأكيدا جازما!، وسألوا الله تعالىٰ أن يسلكهم مع الأمة المحمدية الشاهدة علىٰ الأمم، وأن يدخلهم الجنة مع القوم الصالحين!!.

ولهذا استجاب دعاءهم، وأثابهم الجنة خالدين فيها أبدا؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥﴾ [المائدة: ٨٥].

أي: فجازاهم علىٰ صدق إيمانهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أي: ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥﴾ أي: وذلك الأجر والثواب جزاء من أحسن عمله وأصلح نيّته لله رب العالمين.

ثالثا: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ [القصص: ٥١ – ٥٥].

والآيات الكريمة واردة في سياق التعريض بالمشركين علىٰ عدم إيمانهم بالقرآن الكريم، بمدح قوم من أهل الكتاب آمنوا به أول ما تليت

(١) البحر المحيط: ٤/ ٣٤٧.

علىٰ مسامعهم آياته، لِمَا عاينوه من إعجازه، وما وجدوه من عظمته التي تأسر النفوس والقلوب -إذا تنزهت عن التعصب والهوىٰ-، فلا تملك إلا الإذعان له والإيمان به.

ولم يذكر الله تعالىٰ من أثر القرآن في نفوسهم هنا حين تليت عليهم آياته إلا إعلانهم الإيمان به، وكفىٰ بذلك أثرا وشرفا، فإن كل الأحوال والمقامات إنما هي تابعة لذلك الإيمان الصادق، ولهذا أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم ثناء عاطرا، ومدحهم بالخلال العظيمة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [القصص: ٥١]:

أي: ولقد تابعنا ووالينا[(١)] لقريش القرآن، يتبع بعضُه بعضاً في نزوله، وفي وعده ووعيده، وقصصاه وعبره، ونصائحه ومواعظه؛ ليتعظوا ويتذكروا؛ فيؤمنوا به.

واللام و(قد) كلاهما للتأكيد؛ ردا عليهم؛ إذ جهلوا حكمة تنجيم القرآن، فذُكرت لهم الحكمة[(٢)]، وهي اتعاظهم وتذكرهم شيئا فشيئا، حتىٰ يألفوا ذلك ويستطيعوه، فلم يأخذهم بما فيه كله جملة واحدة ليكون أقرب إلىٰ الفهم، وأولىٰ بالتدبر.

ولما كان قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ پچ مشيرا إلىٰ أنهم لم يتذكروا ولم يتعظوا عقَّبه بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [القصص: ٥٢]، فهو كلام مستأنف استئنافا بيانيا جوابا لسؤال مقدر

(١) (وصَّلْنا): مبالغة في الوصل، وهو ضم بعض الشيء إلىٰ بعض يقال: وصل الحبل إذا ضم قطعه بعضها إلىٰ بعض فصار حبلا، والمعنىٰ: أنزلنا عليهم القرآن يتبع بعضه بعضًا. يراجع: معاني القرآن للفراء: ٣/ ٣٠٧، وغريب القرآن لابن قتيبة: ص٣٣٣، والتحرير والتنوير: ٢٠/ ١٤٢.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٧/ ١٨، ١٤٢.

فحواه: هل تذكَّر غيرهم بالقرآن أم استوىٰ الناس في عدم التذكر به؟، فأجيب: بأن الذين أوتوا الكتاب (التوراة والإنجيل) من قبل نزول القرآن تذكَّروا به واتعظوا وآمنوا(١). وفي هذا إخبار عما يكون من المنصفين من أهل الكتاب، والتعبير بالمضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للدلالة علىٰ استمرار إيمانهم بالقرآن الكريم وتجدده في كل عصر ومصر.

ثم وصف الله تعالىٰ أثر القرآن الكريم في نفوسهم لحظة استماعهم إليه؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٢].

أي: وإذا يُتلىٰ عليهم القرآن -أي علىٰ المنصفين منهم- في أي وقت من الأوقات قالوا: آمنا به، لأنه الحق من ربنا، أي: أعلنوا إيمانهم به أول ما يُلقىٰ علىٰ مسامعهم؛ ليقينهم بأنه الحق؛ لما عاينوه من إعجازه في فصاحته وروعته وبيانه وإخباره عن المغيبات ...الخ، مما لا ينكره إلا جاحد.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، وكان المتبادر: (يقولوا آمنا به)؛ حيث إنه حكاية لما يكون منهم عند الاستماع إليه؛ وذلك للدلالة علىٰ رسوخ هذا الوصف وثباته فيهم كلما استمع المنصفون منهم لآياته. "أو للدلالة علىٰ أنهم كانوا مؤمنين به من قبل نزوله إيمانا إجماليا، فلما استمعوا إلىٰ آياته تحققوا منه فآمنوا به إيمانا تفصيليا، ويشير إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾"(٢): والمعنىٰ: إنا كنا من قبل نزوله موحدين لله، مستسلمين لأمره، مؤمنين بأنه سيبعث محمدا ﷺ وينزل عليه القرآن الكريم.

---

(١) نظم الدرر: ١٤/ ٣١٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٤٤.

ولما آمنوا بالقرآن الكريم ولم يجحدوه مثل ما صنع المشركون أثابهم الله تعالىٰ، ومدحهم وخلع عليهم من خصال أهل الكمال، فقال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٤، ٥٥].

والمعنىٰ[(١)]: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة: يُعْطَوْن ثوابهم مضاعفا، مرة علىٰ إيمانهم بكتابهم، ومرة علىٰ إيمانهم بالقرآن الكريم، بسبب صبرهم علىٰ اتباع الحق، وتحملهم الأذىٰ في سبيل الله. ثم ذكر الله تعالىٰ من خصالهم الكريمة أيضا:

- أن دأبهم الإحسان لكل أحد، حتىٰ للمسيء إليهم بالقول أو الفعل، فيدفعون بالطاعة المعصية، ولا يجهلون علىٰ من جهل عليهم وآذاهم، ولا يقابلون السيئة بمثلها، وإنما يعفون ويصفحون، ويقابلون الكلمة الخبيثة بالكلمة الحسنة.

- وأنهم مما رزقهم الله تعالىٰ ينفقون في كل وجوه الخير.

- وأنهم إذا سمعوا الكلام الساقط الذي لا خير فيه لم يلتفتوا إليه، وانصرفوا عنه تكرما وتنزها. ويقولون لمن تطاول عليهم وآذاهم، لنا أعمالنا التي سيحاسبنا الله تعالىٰ عليها، ولكم أعمالكم التي سيحاسبكم الله تعالىٰ عليها. سلامٌ متاركةٍ ومباعدةٍ منا عليكم، وإعراضٍ عن سفاهتكم، ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم والمجادلة معهم.

****

(١) ملخص من: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢٩٧- ٢٩٩، والبحر المحيط: ٨/ ٣١٤، ٣١٥، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١٩، والتحرير والتنوير ٢٠/ ١٤٤- ١٤٦.

المطلب الثالث
أثر إعجاز القرآن في نفوس الجن

لما كانت رسالة الإسلام عامة للثقلين الإنس والجن كان كل المكلفين منهم مخاطبين بالقرآن الكريم، ولهذا كان لإعجازه أثر في نفوس الجن كما كان له أثر في نفوس الإنس، ومن شواهد ذلك:

أولا: قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

والآيات الكريمة واردة في تأييد النبي ﷺ حيث أرسله الله تعالىٰ للثقلين، وجعله معظما في العالمين، وذلك ما لم يحصل لرسول قبله[(١)].

وفيها أيضا توبيخ لقريش وكفار العرب؛ حيث كفروا وجحدوا، مع كون القرآن الكريم بلسانهم، والرسول ﷺ من جنسهم، وهؤلاء جن ليسوا من جنسه، وقد أثَّر فيهم سماع القرآن، فآمنوا به وبمن أنزل عليه"[(٢)].

وسبب نزول هذه الآيات ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (هَبَطُوا عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِبَطْنِ نَخْلَةَ، فَلَمَّا سَمِعُوهُ قَالُوا: أَنْصِتُوا. قَالُوا: صَهٍ. وَكَانُوا تِسْعَةً أَحَدُهُمْ زَوْبَعَةُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية إلىٰ: ﴿ ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤][(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٥٧.

(٢) البحر المحيط: ٩/ ٤٤٩.

(٣) الحديث: أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الأحقاف: ٢/ ٤٩٥، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ .... ﴾ الآيات، أي: واذكر يا محمد ﷺ إذ وجهنا إليك نفرا من الجن وبعثناهم إليك، يطلبون سماع القرآن الكريم(١).

** وقد بيَّن الله تعالىٰ في هذه الآيات الكريمة حال أولئك النفر من الجن حين استماعهم للقرآن، وبعد استماعهم إليه.

ـ أما حالهم حين الاستماع إليه: فقد صورها قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾، والإنصات: أبلغ من الاستماع، إذ هو المستوىٰ الأعلىٰ من الاستماع، ولا يكون إلا بإعطاء كامل الاهتمام والتركيز لما يُستمع إليه، ولعل هذا هو السر في التعبير بالإنصات دون الاستماع، وذلك للدلالة علىٰ أنهم كانوا يستمعون بأعلىٰ درجة من الاهتمام والتركيز. والمعنىٰ: فلما حضروا استماع القرآن الكريم، تأثروا بإعجازه في فصاحته وبيانه، وجلالته وهيبته وجماله؛ فحث بعضهم بعضا أن اصمتوا واستمعوا بقلوبكم منتبهين حتىٰ النهاية.

"روي أنهم ازدحموا وركب بعضهم بعضًا حبًا للقرآن وحرصاً عليه؛ فقال بعضهم لبعض: اسكتوا" (٢).

- وأما حالهم بعد الاستماع إليه: فقد صورتها الآيات الكريمة:

﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

(١) التفسير البسيط للواحدي: ٢٠/ ١٩٩.

(٢) التفسير البسيط للواحدي: ٢٠/ ٢٢٠.

حيث دلت الآيات الكريمة علىٰ أنهم آمنوا به لحظة الاستماع إليه، وجعلوا من أنفسهم دعاة إليه؛ وما ذاك إلا أثر من آثار إعجاز القرآن في نفوسهم. ويدل سياق الآيات علىٰ أنهم آمنوا به مباشرة دون تباطؤ أو تلكؤ، إذ جندوا أنفسهم وتطوعوا للدعوة إلىٰ الإيمان به والتحذير من مخالفته.

يقول تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: فلما فرغ النبي ﷺ من قراءته أسرعوا إلىٰ قومهم منذرين، يدل علىٰ إسراعهم التعبير بقوله: ﴿وَلَّوْا﴾، دون (رجعوا)، وإنما أسرعوا لشدة تأثرهم بالقرآن الكريم، وما هالهم من روعته وجلاله؛ فلم يطيقوا انتظارا أو تمهلا في إيصال هذا الخير إلىٰ قومهم.

"والتعبير بالفاء في (فلما) يدل علىٰ أن ما استمعوه كان يسيرا وزمنه قصيرا"[1]، فما بالنا لو كان الذي استمعوا إليه كثيرا؟!.

ثم يصور الله تعالىٰ ما كان من دعوتهم قومهم إلىٰ الإيمان بالقرآن الكريم، وما شهدوا به في حقه؛ فيقول سبحانه: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: قالوا عند وصولهم إلىٰ قومهم مترفقين بهم مشفقين عليهم: يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد كتاب موسىٰ عليه السلام، يعنون القرآن الكريم، مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة، يهدي إلىٰ الدين الحق، وإلىٰ طريق الله القويم[2].

لقد أدركوا كل ذلك من أول استماع لهم إلىٰ القرآن الكريم؛ إذ كانوا يهودا –كما يدل ظاهر الآيات– علموا من التوراة أوصاف النبي ﷺ والقرآن الكريم، فلم يستطيعوا –وكانوا منصفين غير متعصبين– أمام عظمة إعجازه إلا الإيمان به، والشهادة له بالحق، ودعوة قومهم لينالهم الشرف مثل ما نالهم.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ١٨/ ١٧٩.

(٢) ملخص من البحر المحيط: ٩/ ٤٥٠، وفتح القدير: ٥/ ٣١، وغيرهما.

وبعد أن شهدوا للقرآن بما شهدوا من الحق، رغَّبُوا قومهم في الإيمان بالنبي ﷺ فقالوا ما حكاه القرآن عنهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٣٢].

أي: وقالوا لقومهم ترغيبا في الإيمان بالنبي ﷺ: يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به، يعنون النبي ﷺ والإيمان به إيمان بالقرآن الكريم.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضها، وهو ما عدا حق العباد فـ (من) للتبعيض، وقيل: هي لابتداء الغاية، والمعنىٰ: أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ثم ينتهي إلىٰ غفران ترك ما هو الأَوْلىٰ. وينقذكم من عذاب موجع، وهو عذاب النار(١).

ولما فرغوا من التعريف بالقرآن الكريم والدلالة عليه والترغيب في الإيمان به، أتبعوه بالتحذير من مخالفته فقالوا ما حكاه القرآن عنهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف].

أي: ومن لا يجب داعي الله ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فليس يفوت الله تعالىٰ، ولا يسبقه، ولا يقدر علىٰ الهرب منه؛ لأنه وإن هرب كل مهرب فهو في الأرض لا سبيل له إلىٰ الخروج منها، وفي هذا ترهيب شديد. ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: وليس له من دونه أنصار يمنعونه من عذاب الله. ثم بيَّنوا أن أولئك الموصوفين بعدم إجابة داعي الله تعالىٰ في ضلال ظاهر واضح؛ حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه(٢).

وخلاصة الأمر: أن هؤلاء النفر من الجن لما استمعوا إلىٰ القرآن الكريم بآذان قلوبهم التي تنزهت عن التعصب وقع أثر إعجازه العظيم في نفوسهم، وملك عليهم قلوبهم، وعرفوا أنه كلام الله تعالىٰ المنزل علىٰ نبيه

(١) ملخص من إرشاد العقل السليم: ٨/ ٨٩، وفتح القدير: ٥/ ٣١.

(٢) ملخص من جامع البيان: ٢٢/ ١٤٢، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ٨٩.

محمد ﷺ فآمنوا به، وجعلوا من أنفسهم دعاة له، فأسرعوا إلىٰ قومهم مرغبين ومخوفين ومحذرين، ولم يدخروا وسعا في نصحهم وتعريفهم به، وما ذاك إلا لِمَا أدركوه بقلوبهم من روعة إعجازه.

ثانيا: قول الله عز وجل:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١ – ٢]

تصور هاتان الآيتان في صدر سورة الجن أثر إعجاز القرآن الكريم في نفوس الجن حين استمعوا إليه.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾:

أمر من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ بأن يُعْلم المسلمين وغيرهم بأنه تعالىٰ أوحىٰ إليه وقوع حدث عظيم في دعوته أقامه الله تكريما له ﷺ وتنويها بشأن القرآن الكريم، وهو أن سخر نفرا من الجن لاستماع القرآن، وألهمهم فهم ما سمعوه واهتداءهم إلىٰ الإيمان به(١).

والمعنىٰ: قل لهم يا محمد: إن الله تعالىٰ أوحىٰ إليّ أَن نفرًا من الجن قد أَلقوا سمعهم إلىٰ القرآن الذي كنت أَتلوه. "فمفعول استمع محذوف دل عليه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾، أي: استمع القرآن نفر من الجن"(٢). وفي الآية دلالة علىٰ أن النبي ﷺ لم يكن يعلم باستماع الجن إلىٰ قراءته للقرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، أي: فقال من سمع منهم لمن لم يسمع من شدة تأثرهم بالقرآن: إنا سمعنا قرآنا عجبا، "وصفوا القرآن بالمصدر (العجب) للمبالغة"(٣). والمراد بـ ﴿عَجَبًا ۝١﴾:

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢١٨.

(٢) السابق.

(٣) الكشاف: ٤/ ٦٢٣. بتصرف.

"أي: بديعا مباينا لسائر الكتب الإلهية، فضلاً عن كلام جميع الناس، في إعجاز نظمه وكمال معانيه، وجمال مبانيه، قائمةٌ فيه دلائلُ الإعجاز"(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: أي: يهدي إلىٰ الحق والصواب(٢).

هذا ما حكاه القرآن الكريم عن وصف أولئك النفر من الجن للقرآن الكريم حين استمعوا إليه؛ وهو وصف موجز بليغ، جمعوا فيه بين إعجازه القرآن وعظمته في لفظه وفي معناه، وفي هداياته.

ولما هزَّ إعجاز القرآن نفوسهم هزًّا عنيفا، وملك عليهم قلوبهم حين استمعوا إليه، أعلنوا إيمانهم به مباشرة، يقول الله تعالىٰ علىٰ لسانهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾:

أي: فآمنا بالقرآن، نحن الذين استمعنا إليه، ولم يتخلف منا أحد أو يتوقف بعد الاستماع إليه، والتعبير بالفاء في (فآمنَّا) يدل علىٰ أنهم آمنوا به مباشرة فور استماعهم إليه، حيث اطمأنت إليه قلوبهم، وامتلأت به يقينا، فلم تحتمل نفوسهم صبرا، فسارعت وأعلنت إيمانها به من فورها.

ولقوة ما نزل بهم من اليقين بسبب ما عاينوا من إعجاز القرآن؛ أكدوا إيمانهم في المستقبل تأكيدا جازما، فقالوا ما حكاه الله تعالىٰ علىٰ لسانهم: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، أي: فآمنا به ولن نشرك بربنا في المستقبل أبدا.

وهذا ما يفعله إعجاز القرآن في النفوس حين تصفو وتتطهر من التعصب والجحود.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٦٢٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٩/ ٧، ونظم الدرر للبقاعي: ٢٠/ ٦٤، السراج المنير للخطيب الشربيني: ٤/ ٣٩٨، وغيرها من كتب التفسير.

(٢) جامع البيان: ٢٣/ ٦٤٧. وغيره من كتب التفسير.

المطلب الرابع
أثر إعجاز القرآن في نفوس المؤمنين

وكما كان لإعجاز القرآن الكريم آثار عظيمة في نفوس المشركين، وأهل الكتاب، والجن، فإن له أعظم الآثار في نفوس المؤمنين؛ ضرورة أنهم به مؤمنون، يقرؤونه، ويستمعون إليه، ويعملون به، وهذه الآثار إنما تظهر علىٰ المؤمنين علىٰ حسب درجاتهم في الإيمان، وأعظم تجلٍّ لها يكون في المؤمنين كاملي الإيمان، الذين فتحوا قلوبهم للقرآن حتىٰ امتلأت منه، وفاض أثره علىٰ جوارحهم.

وسواء أدرك المؤمن وجوه الإعجاز وانقدحت في ذهنه أم لم يدركها؛ فإن للقرآن الكريم علىٰ المؤمن -كلٌّ علىٰ حسب مقامه من الإيمان- جلالٌ لا يُقاوَم، ومهابةٌ لا تُنكر، وعظمةٌ تترك في النفس لذة وحلاوة، وفي القلب انشراحا واطمئنانا، وفي البدن كله راحة وسعادة.

يقول الإمام الخطابي رحمه الله: "فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلىٰ القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرىٰ ما يخلص منه إليه. تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، وتقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب"[1].

فالحديث ههنا ليس عن الأثر الذي يُحدثه القرآن في نفوس المؤمنين فتذعن وتنصاع لأمره ونهيه، وهو ما يستوي فيه عامة المؤمنين، وإنما هو عن شيء آخر فوق ذلك، إنه عن تلك الآثار العظيمة التي تتجلىٰ في نفوس المؤمنين كلما ذكروا بآياته؛ لأجل روعة إعجازه وجلاله ومهابته؛ فيزداد بذلك إيمانهم، وتطمئن قلوبهم، ويجتهدون في الطاعة ويبذلون فيها وسعهم؛ صلاة، وذكرا، وخشية، وخضوعا، وإنفاقا في سبيل الله سبحانه.

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي: ص: ٧٠.

ومن تلك الآثار العظيمة ما يأتي:

أولا: زيادة الإيمان:

(أ) يقول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢].

وهذه الآية الكريمة واردة في صدر سورة الأنفال في سياق آيات يمدح الله تعالىٰ فيها المؤمنين، وقد وردت بأسلوب القصر للإيذان بأن المؤمنين الكاملين(١) هم من تحققت فيهم تلك الصفات المذكورة.

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾: أي: إنما المؤمنون حقا الذين إذا ذكر الله تعالىٰ باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، أو بذكر أمره ونهيه، أو وعده ووعيده؛ ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾: أي: فزعت وخافت(٢)، وهذا هو الوصف الأول من أوصافهم، والمقصود منه ههنا – والله أعلم – لازمه وثمرته، وهو القبول والطاعة والإذعان والانقياد، لا أصله الذي هو الفزع والخوف، إذ لا معنىٰ لهما بمعزل عن أثرهما ولازمهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾: أي: وإذا تليت عليهم آيات القرآن زادتهم يقينـًا، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وانثلاج خاطر(٣)؛ وذلك أثر من آثار إعجاز القرآن الكريم.

---

(١) حيث قال الله تعالىٰ في ختام أوصافهم: ﭼﭽ ﭾ ﭿ ﮀ [الأنفال: ٤].

(٢) الوجل: الفَزَعُ والخَوْفُ، يقال: وَجِلَ يَوْجَل وَجَلًا بالفتح، وأنا وَجِلٌ من هذا الأمر. يراجع: تهذيب اللغة للأزهري: ١١/ ١٣٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/ ٢٤٠، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٤٠٠، ولسان العرب: ١١/ ٧٢٢، مادة (وجل).

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ٨/ ٢٢٠، إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٤/ ٤، وفتح القدير للشوكاني: ٢/ ٣٢٦، والسراج المنير للخطيب الشربيني: ١/ ٥٥٣، ومحاسن التأويل للقاسمي: ٥/ ٢٥٦.

ومما يدل علىٰ كمال اتصافهم بهذا الوصف: مجيء التعبير بـ ﴿إِذَا﴾ وهي تفيد تحقق ما بعدها دون (إن): للدلالة علىٰ تحقق هذا الوصف فيهم عند تلاوة آيات القرآن الكريم عليهم. وبناء الفعل ﴿تُلِيَتْ﴾ لغير فاعله إشارة إلىٰ زيادة إيمانهم كلما تليت عليهم آيات القرآن من أي أحد؛ فضلا عن تحقق ذلك فيهم إذا تلوها هم بأنفسهم. وإيراد ذلك في سياق الشرط والجزاء: إشارة إلىٰ تحقق الجزاء فور تحقق الشرط، فهم بمجرد تلاوة آيات القرآن عليهم يزداد يقينهم وتنشرح صدورهم وتطمئن نفوسهم.

"وقد استدل الإمام البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها علىٰ زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكىٰ الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد"[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾: أي: وعلىٰ مالكهم ومدبر أمورهم، يفوضون أمورهم لا إلىٰ أحد سواه.

(ب) يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾ [التوبة].

والآيتان واردتان في سياق ذم المنافقين وفضحهم لاستهزائهم بالمؤمنين واحتقارهم للقرآن الكريم، وفيهما بيان أن القرآن يزيد المؤمنين إيمانا إلىٰ إيمانهم، ويزيد المنافقين كفرا إلىٰ كفرهم، وذلك أثر من آثار إعجاز القرآن الكريم.

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ﴾:

أي: وإذا ما أنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ سورة من كتابه الكريم، فمن المنافقين من يقول لإخوانه منهم: أيكم زادته هذه السورة النازلة

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ١٠.

إيمانا؛ يقولون هذا استهزاء وتهكما بالمؤمنين، وتحقيرا واستخفافا بما أنزل الله من القرآن، ويجوز أن يكون قولهم هذا لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام وتزهيدهم فيه(١). ويجوز أيضا أن يكون قولهم هذا إنكارا أن يكون نزول سور القرآن يزيد سامعيها إيمانا؛ توهما منهم بأن ما لا يزيدهم إيمانا لا يزيد غيرهم إيمانا، يقيسون علىٰ أحوال قلوبهم!!(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾: إجابة عن استفهام المنافقين السابق الذي حمل في مضمونه استهزاءً، واحتقارًا، وإنكارا أن يكون نزول سور القرآن الكريم يزيد سامعيها من المؤمنين إيمانا.

"والفاء في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ للتفريع علىٰ حكاية استفهامهم السابق بحمله علىٰ ظاهر حاله وصرفه عن مقصدهم منه. وتلك طريقة الأسلوب الحكيم، وهو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه علىٰ خلاف مراده لنكتة، وهي هنا إبطال ما قصدوه من نفي أن تكون السورة تزيد أحدا إيمانا قياسا علىٰ أحوال قلوبهم؛ فأجيب استفهامهم بهذا التفصيل المتفرع عليه، فأثبت أن للسورة زيادة في إيمان المؤمنين وأكثر من الزيادة، وهو حصول البشر لهم"(٣).

والمعنىٰ: فأما الذين آمنوا فزادتهم السورة القرآنية إيمانا علىٰ إيمانهم، وثباتا علىٰ ثباتهم، ويقينا علىٰ يقينهم، وهم فوق ذلك ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أي: يفرحون بنزولها، لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية، ولما تضمنته من رحمة الله تعالىٰ ورضوانه(٤).

(١) يراجع: المحرر الوجيز:٣/ ٩٨، والبحر المحيط: ٥/ ٥٢٩، وفتح القدير: ٢/ ٤٧٥.
(٢) التحرير والتنوير: ١١/ ٦٥.
(٣) السابق.
(٤) أنوار التنزيل للبيضاوي: ٣/ ١٠٢، والبحر المحيط: ٥/ ٥٢٩، وإرشاد العقل السليم: ٤/ ١١٣.

وتلك من آثار إعجاز القرآن الكريم في نفوسهم وقلوبهم، أما في قلوبهم: فيقينا وثباتا، وأما في نفوسهم: ففرحا واستبشارا وسرورا. وهذا يحدث دون شك بتلاوة القرآن الكريم وتدبره، والاستماع إليه، والعمل بما فيه.

قال مجاهد: هذه الآية إشارة إلىٰ أن الإيمان يزيد وينقص(١)، وكان عمر رضي الله عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: تعالوا حتىٰ نزداد إيمانا، فيذكرون الله عز وجل(٢). وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الإيمان يبدو لمظة(٣) بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عِظَما ازداد ذلك البياض حتىٰ يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب فكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتىٰ يسود القلب كله، وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود. وماتوا وهم كافرون(٤).

ثم بين الله تعالىٰ أن القرآن لا يزيد المؤمنين إيمانا فحسب، وإنما يزيد المنافقين كفرا إلىٰ كفرهم؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

(١) الأثر: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٦/ ١٩١٤.

(٢) الأثر: أخرجه أبو بكر الخلال في كتابه السنة: ٥/ ٤٩، وأبو بكر الآجري في الشريعة: ٢/ ٥٨٤، والبيهقي في شعب الإيمان: باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه: ١/ ١٤٤.

(٣) اللمظة: قال الأصمعي: اللمظة مثل النكتة أو نحوها من البياض. لسان العرب: ٧/ ٤٦٢، مادة (لمظ)

(٤) الأثر: أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الإيمان: ص١٨، وأبو بكر الخلال في كتابه السنة: ٥/ ٥٦، والبيهقي في شعب الإيمان: باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه: ١/ ١٤٤.

والمراد بالمرض هنا: النفاق، وبالرجس: الكفر[١]. والمعنىٰ: وأما المنافقون فزادتهم السورة المنزلة كفرا إلىٰ كفرهم الذي هم عليه، لأنهم كلما كفروا بسورة ازداد كفرهم واستحكم وتزايد عقابهم، وثبتوا علىٰ ذلك واستمروا عليه إلىٰ أن ماتوا كفارا[٢].

فالمؤمنون: زادتهم السورة المنزلة إيمانا وأكسبتهم بشرىٰ فحصل لهم نفعان عظيمان، والمنافقون: زادتهم كفرا إلىٰ كفرهم، وماتوا وهم كافرون، فحصلت لهم مصيبتان.

ثانيا: اطمئنان القلوب:

واطمئنان القلوب: سكونها واستقرارها، وعدم اضطرابها أو قلقها، يقال: اطْمَأَنَّ الرَّجُلُ اطْمِئنانًا وطُمَأْنينة، أَي: سَكَن[٣].

وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨].

بعد أن ذكر الله تعالىٰ في الآية السابقة مقالة المشركين وتعنتهم في طلبهم معجزة تنزل علىٰ النبي ﷺ تدل علىٰ نبوته، منكرين أن يكون القرآن الكريم آية دالة علىٰ ذلك، وبيَّن ضلالهم وجحودهم في هذا، حيث قال تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرعد: ٢٧]، عَقَّب ذلك بذكر حال المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم –وتطمئن دوما– بالقرآن الكريم آية كبرىٰ دالة علىٰ نبوته ﷺ .

---

(١) معاني القرآن للفراء: ١/ ٤٥٥، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٤٧٦، وغريب القرآن لابن قتيبة: ص١٩٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٩٩، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٠٢، والبحر المحيط: ٥/ ٥٢٩.

(٣) يراجع: مقاييس اللغة: ٣/ ٤٢٢، ولسان العرب: ١٣/ ٢٦٨، والمفردات للراغب: ص ٥٢٤، مادة (طمن)، ومدارج السالكين لابن القيم: ٢/ ٤٧٩، ٤٨٠.

وفي المراد بذكر الله تعالىٰ في هذه الآية قولان:

أحدهما: ذكر الله علىٰ الإطلاق.

والثاني: أنه القرآن الكريم. وهو المختار عند المحققين. وقد ذكره جل المفسرين، وهو مروي عن السلف؛ قال ابن عباس: يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت، وهو قول مجاهد وقتادة[1].

وهو الأنسب بالآية من وجهين[2]:

الأول: أن الله تعالىٰ سمىٰ القرآن ذكرا؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

والثاني: مناسبته لقوله تعالىٰ في الآية السابقة: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرعد: ٢٧]، فهو دال علىٰ أن المشركين لم يَعُدُّوا القرآن الكريم آية تطمئن لها القلوب فتذعن وتؤمن، فاستبعدوه وطلبوا آية أخرىٰ تعنتا وجحودا، فردَّ الله تعالىٰ

---

(١) يراجع: النكت والعيون للماوردي: ٣/ ١١٠، والتفسير البسيط للواحدي: ١٢/ ٣٤٥، ومعالم التنزيل: ٣/ ٢٠، والتفسير الكبير: ١٩/ ٣٩، والجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٣١٥، ولباب التأويل للخازن: ٣/ ١٧، وغرائب القرآن للنيسابوري: ٤/ ١٥٦، وفتح القدير: ٣/ ٩٧.

(٢) يراجع: التفسير البسيط للواحدي: ١٢/ ٣٤٥، تأويلات أهل السنة للماتريدي: ٦/ ٣٣٨، وحاشية الطيبي علىٰ الكشاف: ٨/ ٥١٢، تفسير القرآن الكريم لابن القيم: ص٣٣٧، وغرائب القرآن للنيسابوري: ٤/ ١٥٦، وإرشاد العقل السليم: ٥/ ٢٠، وروح المعاني للآلوسي: ٧/ ١٤١، وحاشية الشهاب علىٰ البيضاوي: ٥/ ٢٣٧، والتحرير والتنوير: ١٣/ ١٣٧. وغيرها من كتب التفسير.

عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ فهو مدح للمؤمنين وتعريض بالكافرين.

وعليه: فالأظهر والأوفق بالسياق أن يراد بذكر الله هنا: القرآن الكريم؛ لأنه الأنسب للرد علىٰ المشركين الذين لم يكتفوا به معجزة دالة علىٰ صدق النبي ﷺ وقالوا ما حكاه الله تعالىٰ عنهم في الآية السابقة؛ وكأن المعنىٰ: هؤلاء ينكرون كونه آية، والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم.

قال ابن القيم: "ولما كان القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلىٰ حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن الكريم، كان القرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به[(١)].

ومن عظمة القرآن الكريم أن الآية جاءت مطلقة في حصول اطمئنان القلوب بالقرآن الكريم؛ ليكون ذلك شاملا لحصوله بالتلاوة، والاستماع، والعمل؛ فبها جميعا يطمئن قلب المؤمن، وينشرح صدره، وتستريح نفسه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]. استئناف غرضه بيان حال المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله، وهو القرآن الكريم بعد بيان حال أولئك المشركين الذين لم تطمئن قلوبهم بذكر الله تعالىٰ، وهو القرآن الكريم[(٢)].

والمعنىٰ: الذين آمنوا وتسكن وتستقر وتأنس قلوبهم بالقرآن الكريم، كلام الله تعالىٰ المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فهو

(١) تفسير القرآن الكريم لابن القيم: ص: ٣٣٧.

(٢) مستفاد من التحرير والتنوير: ١٣/ ١٣٧.

أعظم المعجزات التي تُسَكِّنُ القلوب وتُثَبِّتُ اليقين فيها؛ إذ هو مصدر طمأنينة القلوب وانشراح الصدور؛ لدلالته بإعجازه علىٰ صدق النبي ﷺ فيما يبلغ عن ربه، ولاشتماله علىٰ خيري الدنيا والآخرة.

وعدل عن الماضي فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ﴾، ولم يقل: (واطمأنت) للدلالة علىٰ دوام اطمئنانهم بالقرآن وتجدده، وأنه لا يتخلله شك أو تردد، أُنْسًا بالقرآن واعتمادا عليه.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بكلامه المعجز، القرآن الكريم ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾، فتأنس وتسكن، وتسعد وتستريح، فإنه معجزة باقية إلىٰ يوم القيامة يشاهدها كل أحد، وتطمئن به القلوب كافة، لكونه معجز من كل جهة؛ فيطمن قلب اللغوي لما يراه من إعجازه في بلاغة نظمه وبديع بيانه، ويطمئن الشرعي لما يراه من إعجازه في تشريعه وحِكمه وأحكامه، ويطمئن المؤرخ لما يراه من إعجازه في إخباره بالمغيبات، وصدقه في كل ما أخبر به، ويطمئن عالم المادة لما يراه من إعجازه في إشاراته إلىٰ دقائق الآيات الكونية. ويطمئن الجميع –حتىٰ من لا يفهم معناه– لما يرونه من روعته ومهابته وجلاله، ..... وهكذا يترك القرآن الكريم أثره العظيم في القلوب إذا صفت وتنزهت عن الجحود.

ثالثا: الاجتهاد في الطاعة:

ولإعجاز القرآن الكريم أثر عظيم في نفوس المؤمنين كاملي الإيمان، يتعدىٰ مجرد الانقياد لأوامره ونواهيه؛ إذ إنه يحثهم علىٰ الاجتهاد في الطاعة، ويدفعهم إلىٰ بذل الوسع فيها؛ سجودا لله تعالىٰ، وتسبيحا بحمده، وتواضعا له عز وجل، وقياما لليل، وإنفاقا في سبيله سبحانه؛ كلما ذُكِّروا بآياته.

يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة].

وردت هذه الآيات الكريمة عقب آيات رد الله تعالىٰ فيها علىٰ المجرمين المكذبين بيوم البعث والحساب، وبيَّن حالهم يوم القيامة حين معاينة العذاب، ووقوفهم بين يديه سبحانه أذلاء ناكسي الرؤوس، وذكر ما توعدهم به من العذاب المهين في الآخرة.

ولما كان إنكارهم للبعث تكذيبا بما جاء به القرآن الكريم عقَّب سبحانه ذلك بذكر أهل الإيمان، الذين آمنوا بالقرآن واتعظوا بآياته؛ فتجلىٰ أثره في نفوسهم؛ اجتهادا في الطاعة، وبذلا للوسع فيها؛ سجودا، وتسبيحا، وحمدا، وصلاة، وإنفاقا، وتقربا إليه تعالىٰ، ثم بيَّن سبحانه ما أعده لهم في الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.

فقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا ﴾: استئناف مسوق لتقرير عدم استحقاق المستكبرين منكري البعث لإيتاء الهدىٰ، والإشعار بعدم إيمانهم لو أوتوه؛ بتعيين من يستحقه بطريق القصر، كأنه قيل: إنكم لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون بموجبها ولو أرجعناكم إلىٰ الدنيا كما تدعون!![1].

والمراد بالآيات هنا: آيات القرآن الكريم؛ بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا ﴾ بتشديد الكاف، أي: أعيد ذكرها عليهم وتكررت تلاوتها علىٰ مسامعهم... وأوثرت صيغة المضارع في ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ ﴾ لما تشعر به من أنهم يزدادون إيمانا ويقينا كلما ذُكِّروا بها[2].

والمعنىٰ: إنما يؤمن القرآن الذين إذا وعظوا به من أيّ واعظ، في أيّ وقت؛ -علىٰ ما يفيده بناء الفعل للمجهول- كان منهم ما ذكره الله تعالىٰ بعدُ من تلك الصفات والأحوال الجليلة.

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٧/ ٨٤. بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير: ٢١/ ٢٢٧، بتصرف.

ثم بيَّن الله سبحانه أثر القرآن في نفوسهم وقلوبهم حين يوعظون به، فذكر لهم أوصافا ستة، وهي أوصاف تدل علىٰ كمال إيمانهم، ولا تنفي الإيمان عمن لم توجد فيهم من المؤمنين:

الوصف **الأول**: في قوله تعالىٰ: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾: وهو يحتمل وجهين: الأول: السجود حقيقة عند تلاوة القرآن؛ خضوعا لله تعالىٰ وخشوعا. والثاني: أن يكون سجودهم عند تذكيرهم بآيات القرآن كناية عن الخضوع والانقياد والاستسلام والقبول لها[1]. والظاهر أن المراد سجودهم حقيقة، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿خَرُّواْ﴾.

والتعبير بالخرور يوحي بأنهم يبادرون إلىٰ السجود مبادرة من كأنه سقط من غير قصد، خضعـًا لله من شدة تواضعهم وخشيتهم وإخباتهم له تعالىٰ؛ خضوعـًا ثابتـًا دائمـًا[2]، ويجوز -والله أعلم- أن يكون خرورهم سجدا إشارة إلىٰ كثرة تقربهم الله تعالىٰ بالصلاة.

والوصف **الثاني**: في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: أي: ونزهوا ربهم عن كل ما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، ومن جملة ذلك العجز عن البعث، ملتبسين بحمده تعالىٰ علىٰ كل نعمائه. والتعبير بالماضي في (خروا) و(سبحوا) يدل علىٰ ثباتهم ورسوخهم في ذلك.

و"التعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلىٰ ضميرهم للإشعار بعلة التسبيح والتحميد وبأنهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالىٰ لهم"[3].

---

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي: ٨/ ٣٣٧. بتصرف.

(٢) نظم الدرر: ١٥/ ٢٥٤. بتصرف.

(٣) إرشاد العقل السليم: ٧/ ٨٤.

ويجوز -والله أعلم- أن يكون تسبيحهم بحمد ربهم إشارة إلىٰ كثرة ذكرهم لله تعالىٰ، تسبيحا وتكبيرا وتهليلا.

والوصف **الثالث**: في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾: أي: والحال أنهم خاضعون له تعالىٰ لا يستكبرون عن عبادته، والتعبير بالمضارع للدلالة علىٰ دوامهم علىٰ هذا التواضع، وأنه ليس حالا عارضة ثم تزول.

و"هذا موضع سجدة من سجدات تلاوة القرآن، رجاء أن يكون التالي من أولئك الذين أثنىٰ الله عليهم بأنهم إذا ذكروا بآيات الله سجدوا، فالقارئ يقتدي بهم"[(١)].

والوصف **الرابع**: في قوله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾:

أي: تتنحَّىٰ وتتباعد جُنُوبُ هؤلاء الذين يؤمنون بآيات القرآن حين يوعظون بها، فترتفع من فرشهم التي يضطجعون عليها لمنامهم، فلا ينامون[(٢)]؛ لأجل الاجتهاد في طاعة الله تعالىٰ.

والوصف الخامس: في قوله تعالىٰ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: أي: يدعون ربهم خائفين من سخطه وعقابه، وطامعين في رضاه وثوابه. و"عبر بالطمع دون الرجاء إشارة إلىٰ أنهم لشدة معرفتهم بنقائصهم لا يعدون أعمالهم هذه شيئا، بل يطلبون فضله تعالىٰ بغير سبب، وإذا كانوا يرجون رحمته بغير سبب فهم مع السبب أرجىٰ، فهم لا ييأسون من روحه تعالىٰ"[(٣)].

والوصف السادس: في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾: أي: ومما رزقناهم من المال وغيره ينفقون في وجوه البر والقُرَب.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢١/ ٢٢٨.

(٢) جامع البيان للطبري: ٢٠/ ١٧٧، بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير: ٢١/ ٢٢٩. بتصرف.

والتعبير بالمضارع في: (وهم لا يستكبرون)، و(تتجافىٰ)، و(يدعون)، و(ينفقون)، للدلالة علىٰ تجدد تلك الأحوال فيهم كلما ذكروا بآيات القرآن الكريم.

وبعد أن ذكر الله تعالىٰ أوصافهم ذكر ما أعده لهم من النعيم المقيم فقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾: أي فلا تعلم نفس من جميع النفوس لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عمن عداهم، ما أخفي لهؤلاء المتذكرين بالقرآن الكريم، الذين عدد الله نعوتهم الجليلة، چه ٨ ہچ: أي: مما تقر به الأعين، كناية عن شدة المسرة. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل: (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)(١).

﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾: أي جُزُوا جزاء، أو أخفي لهم الجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة، قيل: لما أخفىٰ هؤلاء القوم أعمالهم أخفىٰ الله تعالىٰ ثوابهم(٢).

رابعا: الخشية التامة:

ومن آثار إعجاز القرآن الكريم في نفوس المؤمنين أيضا تلك الخشية التي تملأ كيانهم وتظهر ملامحها علىٰ ظواهرهم عند تلاوته أو الاستماع إليه؛ قشعريرة في الجلود، خوفا ووجلا، ولينا في القلوب رغبة ورجاء.

يقول الله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣].

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة: ٤/ ١١٨، ح(٣٢٤٤).

(٢) نظم الدرر: ١٥/ ٢٥٧، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ٨٥، بتصرف واختصار.

وهو استئناف بياني للتنويه بشأن القرآن الكريم؛ لأن مضمون قوله تعالىٰ في الآية السابقة: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]، يثير سؤال سائل عن وجه قسوة قلوب الضالين من ذكر الله؛ فجاء قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر]، لبيان أن قساوة قلوب الضالين من سماع القرآن إنما هي لرين في قلوبهم وعقولهم لا لنقص في هدايته[(١)].

وفي هذه الآية الكريمة وصف الله تعالىٰ القرآن الكريم بأربعة أوصاف جليلة، ثلاثة منها فيه، وواحد فيما يتركه في المؤمنين من خشية عظيمة يتجلىٰ أثرها في نفوسهم حتىٰ يظهر علىٰ جوارحهم:

الوصف الأول: أنه أحسن الحديث، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾: أي: اللهُ نزَّل القرآن العظيم أحسن الكلام؛ لأنه اشتمل علىٰ أصول الإيمان والتشريع، والمعاش والمعاد، والأخلاق والآداب، وكل ما به صلاح الدين والدنيا والآخرة، وجاء مصدقا ومهيمنا علىٰ ما تقدمه من كتب الله السابقة، ومنزها عن التناقض والاختلاف، وبلغ حد الإعجاز في فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه واشتماله علىٰ الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل، حتىٰ أعجز الإنس والجن، وقضىٰ عليهم بالعجز التام إلىٰ قيام الساعة.

و"الابتداءُ باسم (الله)، وإسناد الإنزال إليه تعالىٰ فيه تفخيمٌ وتعظيم لشأن القرآن"[(٢)].

الوصف الثاني: في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾:

و"متشابها" صفة لـ "كتابا"، والمعنىٰ: قرآنا مستويا لا تناقض فيه ولا اختلاف، بل يشبه بعضه بعضا في الحسن والإحكام، وفي الفضل والحكمة، وفي

(١) التحرير والتنوير: ٢٣/ ٣٨٣، بتصرف.

(٢) البحر المحيط: ٩/ ١٩٥، إرشاد العقل السليم: ٧/ ٢٥١.

فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، وقوة مبانيه، ووثاقة براهينه، وبلوغه أعلىٰ درجات البلاغة والفصاحة التي أعجزت الفصحاء والبلغاء[(١)].

الوصف الثالث: في قوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾:

وهو صفة أخرىٰ لـ (كتابا)، وهو جمع (مُثَنَّىٰ) بضم الميم وتشديد النون، أو جمع (مَثْنَىٰ) بفتح الميم وتخفيف النون علىٰ وزن مفعل، وعلىٰ كلا الاحتمالين يطلق علىٰ معنىٰ التكرير. فالقرآن مثاني، لما يكرر من قصصه وأنبائه ومواعظه وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، وقيل لأنه يثنىٰ في التلاوة فلا يمل سامعه ولا يسأم قارئه. وفائدة تثنيته وتكرره رسوخه في النفوس، إذ هي أنفر شيء عن سماع الوعظ والنصيحة[(٢)].

**وبعد أن وصف الله تعالىٰ القرآن بهذه الأوصاف الثلاثة وصفه بأثره في نفوس المؤمنين؛ فقال تعالىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وهذه هي الخشية التامة التي يحدثها القرآن في نفوس المؤمنين؛ صورها الله تعالىٰ بهذا التصوير المعجز.

قوله تعالىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾:

الاقشعرار: قشعريرة تلحق الجسم من تَذَكُّر شيء مهيب أو هجومه، وهو التقبض، يقال: اقشعر جلده: إذا تَقَبَّض تَقَبُّضًا شديدًا، ويقال: اقشعر جلده من الخوف: وقَفَّ شعره من شدّة الخوف[(٣)].

---

(١) يراجع: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٤١٨، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ٣٥١، وجامع البيان: ٢١/ ٢٧٩، والمحرر الوجيز: ٤/ ٥٢٧.

(٢) يراجع: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٤١٨، وغريب القرآن لابن قتيبة: ص٣٥، والكشاف: ٤/ ١٢٣، ١٢٤، والبحر المحيط: ٩/ ١٥٩.

(٣) الكشاف: ٤/ ١٢٤، والدر المصون للسمين الحلبي: ٩/ ٤٢٣، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ له أيضا: ٣/ ٣٠٩.

والظاهر حمل القشعريرة علىٰ الحقيقة؛ إذ هي موجودة عند الخشية، محسوسة يدركها المؤمن من نفسه، وهي حاصلة من التأثر القلبي، وقيل: هي كناية عن الخشية الشديدة التي تعتريهم، وهذا تمثيل وتصوير لإفراط خشيتهم. والمعنىٰ: أنه تعتري هؤلاء المؤمنين خشية عظيمة عند تلاوة القرآن أو الاستماع إليه، تنقبض منها جلودهم، ثم تلين قلوبهم؛ هيبةً من الرحمن وإجلالاً لكلامه سبحانه(١).

قال المفسرون: إذا ذُكرت آيات الخوف اقشعرت جلودهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ذُكرت آيات الرحمة(٢). والظاهر أن تلك القشعريرة تكون لهم بجميع القرآن بما فيه من الرحمة والرهبة جميعًا، لما فيهما من الموعظة التي تُلِين قلوبَهم وتُقَشعر جلودَهم؛ لأن آية الرحمة ليست بأحق بتليين القلوب من آية الرهبة، بل آية الرهبة أحق بذلك(٣).

يقول الرازي رحمه الله: "فإني كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدي، وقَفَّ عليَّ شعري، وحصلت في قلبي دهشة وروعة"(٤).

قال قتادة: كانت جلودهم تقشعر، وعيونهم تبكي، وقلوبهم تطمئن، ولا تذهب عقولهم، ولا يغشىٰ عليهم، كما رأينا أهل البدع يفعلونه، وإنما ذلك من الشيطان(٥).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾: أي: ثم تطمئن جلودهم لينة غير منقبضة، وقلوبهم راجية خاشية عند تلاوة القرآن أو

(١) الكشاف: ٤/ ١٢٤، والبحر المحيط: ٩/ ١٩٦. بتصرف.

(٢) معاني القرآن للفراء: ٢/ ٤١٨، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ٣٥٢، ومعاني القرآن للنحاس: ٦/ ١٦٩، والتفسير الكبير للرازي: ٢٩/ ٤٤٦، والبحر المحيط: ٦/ ١٩٥، ١٩٦، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ٢٥١، وفتح القدير: ٤/ ٥٢٧. وغيرها من كتب التفسير.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٨/ ٦٧٥. وأشار إليه الرازي في التفسير الكبير: ٢٦/ ٤٤٧.

(٤) التفسير الكبير: ٢٦/ ٤٤٧.

(٥) تأويلات أهل السنة: ٨/ ٦٧٥، ومعالم التنزيل: ٤/ ٨٦، وزاد المسير: ٤/ ١٥.

سماعه، ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: "أي إلىٰ ذكر رحمة الله تعالىٰ أو فضله سبحانه في كتابه الكريم"[1]. قال ابن كثير: "هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه"[2].

وبدأ الله تعالىٰ بذكر قشعريرة جلودهم ثم ثنىٰ بلين جلودهم وقلوبهم؛ لأن الخشية من أثر تلاوة القرآن أو سماعه أول ما تقع في قلب المؤمن تُحدث ذلك الاقشعرار في جلده، من شدة الخشية، ثم لا يلبث المؤمن أن يطمئن بالقرآن قلبه فيحدث فيه وفي جلده وسائر جوارحه سكون وراحة واطمئنان .

هذا الصنيع الذي يفعله القرآن الكريم في نفوس المؤمنين وقلوبهم إنما هو أثر من آثار إعجازه، في جلاله وروعته ومهابته، والذي يهجم علىٰ نفوسهم حين التلاوة أو الاستماع، فيزلزل أركانها، ويقتحم عليها أسوارها، فيترك فيها خشية وخشوعا وخضوعا.

ثم إنه تعالىٰ لما وصف القرآن الكريم بهذه الصفات قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: ذلك القرآن الذي تلك صفاته هو بيان الله الذي يهدي به من يشاء أن يهديه من عباده. ﭽ ڈ ڈ ڈ ڈ ژ ﷺ ﭼ أي: ومن يخذله اللهُ فيجعل قلبه قاسيًا مظلمًا بليد الفهم منافيا لقبول هذه الهداية، فما له من هاد يهديه إلىٰ الحق، ويخلصه من الضلال[3].

وفي هذا إشارة إلىٰ أن تلك الآثار العظيمة للقرآن الكريم في النفوس لا تتحقق إلا فيمن وفقهم الله تعالىٰ للهداية، فاستجابت قلوبهم وصارت محلا لقبول تلك التجليات القرآنية، أما من عميت بصائرهم ولم يقبلوا الهدىٰ فهم بعيدون عنها محرومون منها.

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٧/ ٢٥١.

(٢) تفسير القرآن العظيم" ٧/ ٨٤. باختصار.

(٣) جامع البيان: ٢١/ ٢٨١، والتفسير الكبير: ٢٦/ ٤٤٨، والجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٥٠، والبحر المحيط: ٩/ ١٩٦. باختصار.

المطلب الخامس
أثر إعجاز القرآن في نفوس غير المسلمين من العجم المعاصرين

وكما كان لإعجاز القرآن أثر عظيم في نفوس العرب أهل الفصاحة والبيان، من آمن منهم ومن لم يؤمن، وكذلك الجن، وأهل الكتاب، والمؤمنين، فإن له أيضا أعظم الأثر في نفوس غير المسلمين من العجم المعاصرين ، فتأثير الإعجاز ليس مقصورا علىٰ العرب الذين يفهمون لغته ويدركون إعجازه في فصاحته وبلاغته؛ بل إنه يشمل جميع الإنس والجن، في كل عصر ومصر.

نرىٰ ذلك لدىٰ غير المسلمين من العجم في العصر الحديث، عصر التقدم العلمي والتقني، ويدلنا عليه مواكب العلماء والباحثين وعامة الناس الذين يقبلون علىٰ الإسلام كل يوم مهتدين بأنواره، منبهرين بإعجازه.

وهذه شواهد ونماذج لأعاجم أثر في نفوسهم إعجاز القرآن فأسلموا:

١- عالم الرياضيات الدكتور/ "جاري ميلر"[(١)]:

هو المبشر الكَنَدِيُّ النشيط، وأستاذ الرياضيات والمنطق في جامعة "تورنتو"، قرر أن يقدم خدمة جليلة للمسيحية بالكشف عن الأخطاء العلمية والتاريخية في القرآن الكريم، بما يفيده وزملاءه المبشرين عند دعوة المسلمين للمسيحية.

لكنه بعد دراسة محايدة ومتأنية ومتدبرة للقرآن الكريم سكنت نفسه واطمأن قلبه لما أذهله وأبهره من إعجازه في شتىٰ النواحي التاريخية والعلمية وغيرها، فأعلن إسلامه، وألف كتابه الشهير "القرآن المذهل"، وكان مما أثبته فيه من شواهد الإعجاز:

---

(١) يراجع كتابه: القرآن المذهل، ترجمة وإصدار موقع نصرة رسول الله WWW.rasoulallah.net.

- أن القرآن الكريم لم يذكر الأحداث العصيبة التي مرت بالنبي ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة أو وفاة بناته وأولاده، بل الأعجب أن الآيات التي نزلت تعقيبًا علىٰ بعض النكسات في طريق الدعوة، كانت تبشر بالنصر، وتلك التي نزلت تعقيبًا علىٰ الانتصارات كانت تدعو إلىٰ عدم الاغترار والمزيد من التضحيات والعطاء. ولو كان أحد يؤرخ لسيرته لعظم من شأن الانتصارات، وبرر الهزائم، ولكن القرآن الكريم جاء علىٰ العكس تمامًا، لأنه لم يؤرخ لفترة تاريخية بقدر ما قدم التوجيهات الإلهية والدروس والعبر والمواعظ[1].

- وتعليقًا علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[هود: ٤٩] تعقيبًا علىٰ بعض القصص القرآني، يذكر ميلر: أنه لا يوجد كتاب من الكتب الدينية المقدسة يتكلم بهذا الأسلوب، إنه يمد القارئ بالمعلومة، ثم يقول له هذه معلومة جديدة!! هذا تحد لا مثيل له؟ ماذا لو كذبه أهل مكة – ولو بالادعاء – فقالوا: كذبت كنا نعرف هذا من قبل. ماذا لو كذبه أحد من الباحثين بعد ذلك مدعيًا أن هذه المعلومات كانت معروفة من قبل؟ ولكن كل ذلك لم يحدث"[2].

- ويرد علىٰ الزعم التاريخي الباطل بأن الشياطين هي التي كانت تملي علىٰ الرسول ﷺ ما جاء به، فيبين أن القرآن الكريم يتحدىٰ فيقول: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾[الشعراء]. فهل تؤلف الشياطين كتابًا ثم تقول لا أستطيع أن أؤلفه؟!، أو تقول: إذا قرأت هذا الكتاب فتعوذ مني؟![3].

- وعند قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ]،

(١)، (٢،)، (٣) المصدر السابق: ص١٢ بتصرف.

يشير إلىٰ التجربة التي أجراها أحد الباحثين في جامعة "تورنتو" عن "فعالية المناقشة الجماعية"، وفيها جمع أعداداً مختلفة من المناقشين، وقارن النتائج فاكتشف أن أقصىٰ فعالية للنقاش تكون عندما يكون عدد المتحاورين اثنين، وأن الفعالية تقل إذا زاد هذا العدد(١).

٢ - "رينيه جينو" الذي صار "عبد الواحد يحيى":

هو العالم الفيلسوف الحكيم، الصوفي "رينيه جينو"، الذي يدوي اسمه في أوربا قاطبة، وفي أمريكا، والذي يعرفه كل هؤلاء الذي يتصلون بالدراسات الفلسفية والدينية.

وقد كان إسلامه ثورة كبرىٰ هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة، فاقتدوا به، واعتنقوا الإسلام. وكان سبب إسلامه بسيطا ومنطقيا في آن واحد:

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس معجز، تطمئن إليه نفسه، فلم يجد – بعد دراسة عميقة – سوىٰ القرآن، فهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف ولا التبديل، لأن الله تكفل بحفظه، وحفظه حقيقة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]. لم يجد سوىٰ القرآن نصا مقدسا صحيحا معجزا، اطمأنت إليه نفسه، فاعتصم به، وسار تحت لوائه، فغمره الأمن النفساني في رحاب القرآن"(٢).

٣- الفنان الإنجليزي "كات ستيفنز" أو "يوسف إسلام":

هو ذلكم المغني الإنجليزي المشهور، الذي ضربت شهرته الآفاق خلال فترة قصيرة من عمره، ولكنه رفض كل مغريات الحياة بكل شهرتها وشهواتها حين شعر بالقلق والاضطراب، وبدأ يبحث عن الاطمئنان

(١) المصدر السابق: ص٤٠ بتصرف.
(٢) أوربا والإسلام لشيخ الأزهر عبد الحليم محمود: ص٧٢. بتلخيص واختصار.

والسكينة النفسية، فاعتزل الناس، وبدأ يبحث عن السعادة التي لم يجدها – كما يقول – في الغنىٰ، ولا في الشهرة، ولا في القمة، ولا في الكنيسة، ولا في البوذية، ولا في الفلسفة الصينية، ولا في الشيوعية، ولا في العقاقير المهدئة، ولا في أي شيء آخر... لم يجدها إلا في القرآن، ذلكم الكتاب المعجز.

يقول: "وفي عام ١٩٧٥م حدثت المعجزة، بعد أن قدَّم لي شقيقي الأكبر نسخة من القرآن الكريم هدية، فشعرت تجاهه باهتمام بالغ، رغم أني لا أعرف ما بداخله، فأخذت أبحث عن ترجمة لمعاني القرآن الكريم ....".

ثم يقول: "القرآن هو الذي دعاني للإسلام، فأجبت دعوته،... يكفي أني لاحظت في القرآن شيئا غريبا، هو أنه لا يشبه باقي الكتب، ولا يتكون من مقاطع وأوصاف تتوفر في الكتب الدينية التي قرأتها، ولم يكن علىٰ غلاف القرآن اسم مؤلف، ولهذا أيقنت أن الوحي الذي أوحي إلىٰ هذا النبي المرسل بهذا القرآن من الله تعالىٰ .... لقد تبين لي الفارق، حيث قرأت الإنجيل الذي كتب علىٰ يد مؤلفين مختلفين من قصص متعددة .... حاولت البحث عن أخطاء في القرآن الكريم ولكني لم أجد!! بل كان كله منسجما مع فكرة الوحدانية الخالصة ... لقد أجاب القرآن عن كل تساؤلاتي، وبذلك شعرت بالسعادة، سعادة العثور علىٰ الحقيقة .... لقد ولدت من جديد".

وعلىٰ إحدىٰ قنوات التليفزيون البريطاني يسأله المذيع أسئلة كثيرة عن الإسلام، فيجيب عنها إجابات رائعة، ومن ذلك: لماذا اخترت الإسلام علىٰ غيره؟ فيجيب ببساطة قائلا: "لأنه الدين الحق الأخير، ولأن القرآن حق، ولم يستطع أحد من العلماء أو غيرهم أن يجد أي تناقض في القرآن الكريم، فضلا عن ذلك أنه احتوىٰ علىٰ كل شيء يحتاج إليه البشر لهدايتهم"[(١)].

(١) يراجع كتاب: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء لمحمد كامل عبد الصمد: ٢/ ١٠٥ – ١١٢، نقلا عن المجلة العربية الصادرة في يونيو ١٩٨٦م.

٤- المهندس الألماني: "يوليوس برتولبوجين فانجر"[(١)]:

يتحدث عن رحلته الإيمانية وعن تأثره بإعجاز القرآن الكريم فيقول: "وعند القرآن توقفت كثيرا، فقد مس شغاف قلبي، وتغلغل في وجداني بسهولة ويسر ... لقد وجدت فيه ضالتي والإجابة عن كل مبهم وغامض بالنسبة لي .... فرُحت أقرأ وأقرأ .... وعرفت أنه الكتاب الذي لم يدخله التحريف أو التغيير، وإنما هو شيء مختلف تماما، إنه إعجاز، بل هو الإعجاز بعينه، فهو كلام الله سبحانه وتعالىٰ أوحىٰ به إلىٰ محمد خاتم الأنبياء ليهدي العالمين".

٥- بطل العالم في الملاكمة: "كاسيوس كلاي" الذي صار "محمد علي كلاي"[(٢)]:

يحكي رحلته الإيمانية، فيذكر تأثره بإعجاز القرآن الكريم فيقول: "لقد قرأت معاني القرآن مترجمة، فما ازددت مع كل سطر قرأته إلا اقتناعا بأن هذا الدين حقيقة ربانية محال أن يخترعه بشر ... وبدأت أعيش مع القرآن، والفاتحة أول سورة حفظتها منه .... وبدأت رحلة الإسلام التي هي رحلة طمأنينة، ورحلة إيمان يعيشها صاحبها بتعاليم خالقه سبحانه وتعالىٰ".

٦- السيدة الألمانية: "دورنيه أمبغ" التي صارت: عائشة عبد الله[(٣)]:

تروي ما أحدثه إعجاز القرآن في نفسها من أمن واطمئنان، فتقول: "إن أعظم ما وجدته في القرآن أن كل مشاكل الحياة النفسية والمادية قد وضع لها حلا مطمئنا،

---

(١) يراجع كتاب: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء: ٢/ ٧٢، ٧٣.

(٢) يراجع كتاب: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء: ١/ ٤٠- ٤٦. نقلا عن مجلة الفيصل – العدد ١٧٠، الصادرة في مارس ١٩٩١م.

(٣) يراجع كتاب: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء: ٣/ ١٦٨، ١٦٩. نقلا عن صحيفة المسلمين الصادرة في ١٠/ ١/ ١٩٩٢م

وأعظم تلك الحلول أن القرآن يعلم الإنسان التسليم لمشيئة الله سبحانه وتعالىٰ، فصرت لا أفارقه ولا يفارقني، وأشعر بآياته تسري في كياني، فتدب الحيوية في عروقي وحياتي كلها .... ولذا لم أجد بدًّا من اعتناق الإسلام الذي انجذبت إليه، فأشهرت إسلامي، وحملت اسم: عائشة".

٧- بطل الملاكمة العالمي الأمريكي "مايك تايسون"[(١)]:

يذكر في رحلته الإيمانية ما كان لإعجاز القرآن من أثر عظيم في هدايته لهذا الدين، حيث تبين له بعد بحث وقراءة: أن أعظم شيء أقنعه بالإسلام هو أن القرآن الكريم فيه إجابات عن كل الأسئلة عن الحياة والموت، وأن القرآن يحترم اليهودية والمسيحية، في الوقت الذي ينكر فيه اليهود المسيح، والمسيحيون ينكرون الإسلام.

٨- البروفيسور البريطاني "آرثر أليسون" الذي صار عبد الله أليسون[(٢)]:

حيث كان للإعجاز العلمي في القرآن أثر عظيم في سكون نفسه واطمئنان قلبه وارتياحه لهذا الدين الحنيف، فقد حضر هذا البروفيسور البريطاني "آرثر أليسون": وهو رئيس قسم الهندسة الكهربائية والإلكترونية بجامعة لندن إلىٰ القاهرة عام ١٩٨٥م ليشارك في المؤتمر الطبي الإسلامي الدولي حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مشاركا ببحثه عن أساليب العلاج النفسي والروحاني في القرآن الكريم، بالإضافة إلىٰ بحث آخر حول النوم والموت والعلاقة بينهما في ضوء الآية القرآنية الكريمة: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّ

(١) يراجع: سلسلة قصص مشاهير المهتدين: العدد ٢٣. الصادرة عن لجنة التعريف بالإسلام بجمعية النجاة الخيرية، بالكويت.

(٢) يراجع: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء: ١/ ١١٥ - ١١٨، نقلا وسلسلة قصص مشاهير المهتدين: العدد ٢٣.

ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢].

والعجيب أنه لم يكن - وقتئذ – قد اعتنق الإسلام، وإنما كانت مشاعره تجاهه لا تتعدىٰ الإعجاب به كدين.

وبعد أن ألقىٰ بحثه جلس يشارك في أعمال المؤتمر، ويستمع إلىٰ باقي البحوث التي تناولت الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فتملكه الانبهار، وقد ازداد يقينه بأن هذا الدين هو الحق ...

وفي الليلة الختامية للمؤتمر وقف البروفيسور "آرثر أليسون" أمام شاشات وكاميرات مراسلي وكالات الأنباء العالمية، وأعلن أن الإسلام هو دين الحق، ودين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ثم نطق بالشهادتين.

ثم تناول جزئية من بحثه الذي شارك به في أعمال المؤتمر، والتي دارت حول حالة النوم والموت من خلال الآية الكريمة: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢].

فأثبت أن الآية الكريمة تذكر أن الوفاة تعني الموت، وتعني النوم، وأن الموت وفاة غير راجعة، في حين أن النوم وفاة راجعة، وقد ثبت ذلك من خلال الدراسات الباراسيكولوجية، والفحوص الإكلينيكية من خلال رسم المخ، ورسم القلب، فضلا عن توقف النفس الذي يجعل الطبيب يعلن عن موت هذا الشخص، أو عدم موته في حالة غيبوبته أو نومه.

وبذلك أثبت العلم أن النوم والموت عمليتان متشابهتان، تخرج فيهما النفس وتعود في حالة النوم، ولا تعود في حالة الموت كما أخبر القرآن الكريم[1].

٩- البروفيسور "جاناتا جانس"[2]:

وهو من علماء تشريح الأجنة المعدودين في العالم، أعلن إسلامه بعد أن أبهره الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، واطمأنت نفسه إليه، حيث وجد أن ما ورد في القرآن الكريم من وصف لحالة الجنين في الرحم، منذ النطفة حتىٰ يخرج إنسانا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٦].

رأىٰ هذا البروفيسور أن ذلك جاء مطابقا لما يقضي به العلم التجريبي المستند إلىٰ المختبرات وغيرها من الأجهزة الحديثة المتقدمة في هذا المجال؛ فأعلن إسلامه.

١٠- "ريتشارد فيرلي" كبير مفتشي فرقة مكافحة الإرهاب الأسبق[3]:

حيث كان للإعجاز العلمي أثر في اطمئنان نفسه وانشراح صدره لدين الإسلام، فقد ساقته دراساته في علم الجيولوجيا في جامعة "إكستر" جنوب غرب بريطانيا إلىٰ الإعجاز العلمي في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾[النبأ: ٦ – ٧]، حيث أثبت العلم أن الجبال أوتاد للأرض،

---

(١) يرجع إلىٰ المؤتمر الطبي الإسلامي الدولي حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عام ١٩٨٥م.

(٢) يراجع: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء: ٢/ ١٣٠، ١٣١.

(٣) يراجع: سلسلة قصص مشاهير المهتدين: العدد ١٧.

وأنها مغروسة في الأرض لأعماق قد تصل إلىٰ خمسة عشر ضعف ارتفاعها فوق سطح الأرض، وأن لها دورا كبيرا في إيقاف الحركة الأفقية الفجائية لصفائح طبقة الأرض الصخرية!، وهو ما أخبر عنه القرآن الكريم.

١١- العالم الفرنسي الدكتور/ جرينيه[1]:

كان سبب إسلامه اطمئنان نفسه للإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فإنه لما سئل عن سبب إسلامه قال:

"إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، والتي درستها من صغري، وأعلمها جيدا، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق علىٰ معارفنا الحديثة، فأسلمت لأنني تيقنت أن محمدا ﷺ أتىٰ بالحق الصراح من قبل ألف سنة، من قبل أن يكون معلم ومدرس من البشر، ولو أن كل صاحب فن من الفنون، أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيدا كما قارنت أنا لأسلم بلا شك، إن كان عاقلا خاليا من الأغراض".

١٢- العالم اليهودي الدكتور/ نسيم سوسة(٢):

حيث انبهر بالإعجاز اللغوي للقرآن الكريم من أول وهلة قرأه فيها، فاطمأنت نفسه وانشرح صدره لهذا الدين.... حيث يقول:

---

(١) أوربا والإسلام لشيخ الأزهر عبد الحليم محمود ، نقلا عن مجلة المنار، مجلد ١٤، ص٥١٨.

(٢) عالم يهودي، كان يدرس في الجامعة الأمريكية ببيروت، اعتنق الإسلام، وكشف حقيقة التاريخ المزيف الذي دونه اليهود. يراجع كتاب: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء لمحمد كامل عبد الصمد: ١/ ٢٠١- ٢٠٤.

"فامتلكت كلماته فؤادي، وسرت في عروقي سريان الدم في الشرايين .... وأدركت حين قرأته لماذا يشعر اليهودي والنصراني بالارتياب نحو العديد من نصوص التوراة والأناجيل، في حين لا يرتاب المسلم لحظة واحدة في القرآن الكريم .... وأن التوراة والأناجيل كتبت في عصور تالية لنبوة موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، وقد حَرَّف الأحبار والرهبان ما نزل علىٰ هذين النبيين الكريمين من كلمات، بل تبدلت التوراة وكذا الإنجيل في أكثر من عصر، في حين احتفظ القرآن الكريم بكلماته بدون تحريف أو تبديل"(١).

ويتحدث عن بدايات خطواته إلىٰ الإيمان وكيف أثر فيه إعجاز القرآن، فيقول: "كنت أطرب لتلاوة آيات القرآن الكريم، وكثيرا ما كنت أنزوي في مصيفي تحت ظل الأشجار، وعلىٰ سفح جبال لبنان، فأمكث هناك ساعات طوالا أترنم بقراءته بأعلىٰ صوتي"(٢).

وبعد ...

هذه شواهد من الواقع المعاصر تثبت أثر إعجاز القرآن الكريم في نفوس أناس من العجم، تحرروا من العصبية، وتنزهوا عن الجحود، وتحلوا بالحيادية المطلقة؛ فأبهرهم إعجازه، فسكنت إليه نفوسهم، واطمأنت به قلوبهم، فأعلنوا إسلامهم، تاركين وراءهم حياة مملوءة بالمتع والشهوات.

لقد انتشلهم القرآن من براثن الهوىٰ والملذات، التي لم تجلب لهم إلا القلق والاضطراب، ولم يجدوا فيها راحة نفسية ولا اطمئنانا، مع ما هم فيه من رغد العيش، ووفرة الملذات، دون حسيب أو رقيب. ولولا إعجازه ما تحققت هذه الآثار في نفوسهم..

---

(١) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء: ١/ ٢٠١- ٢٠٢، نقلا عن كتاب: في طريقي إلىٰ الإسلام للدكتور/ نسيم سوسة.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٠٢.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، وبنور هديه تتبدد الظلمات، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الخلق وسيد البريات، سيدنا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أنجم الهدايات، ومن سار علىٰ نهجهم إلىٰ يوم الدين. وبعد،

فقد انتهيت بحمد الله تعالىٰ وتوفيقه من هذه الدراسة: (إعجاز القرآن الكريم وأثره في النفوس)، وكان من نتائجها:

١- لما كان إعجاز القرآن باقيا أبد الدهر، وكانت وجوهه متعددة ومتجددة في كل عصر؛ كانت آثارها العظيمة في النفوس باقية ومتجددة أيضا.

٢- بلغ من آثار إعجاز القرآن في نفوس المشركين من العرب الأوائل أنهم لم يستطيعوا – مع شدة جحودهم– إخفاء ما أدركوه من إعجازه؛ فنطقت ألسنتهم بالحق رغما عنهم، وسجل التاريخ شهاداتهم، ولولا جحودهم لآمنوا أجمعين. وقد كان لإعجاز القرآن الأثر الأكبر في إيمان من آمن منهم.

٣- كان -ولا يزال- لإعجاز القرآن أثره العظيم في نفوس أهل الكتاب؛ خاصة أهل العلم منهم، الذين تجردت نفوسهم من الجحود وتنزهت من العصبية، واستمعوا إليه بآذان قلوبهم، وقد بيَّن الله تعالىٰ شدة تأثرهم بجلال القرآن؛ في سرعة استجابتهم وامتثالهم للإيمان به، وفي ظهور آثاره علىٰ جوارحهم؛ سجودا، وخشية، وخشوعا، وخضوعا، حتىٰ فاضت أعينهم بالدمع.

٤- ولما كان الجن مخاطبين بالقرآن مكلفين به كان لإعجازه أثر في نفوسهم أيضا، وقد قصَّ الله تعالىٰ في كتابه الكريم طرفا من هذا، فذكر أثره في نفوس نفر من الجن استمعوا إلىٰ آياته، فأثر في نفوسهم تأثيرا عظيما، وملك عليهم قلوبهم؛ فأعلنوا إيمانهم به من

فورهم، وجعلوا من أنفسهم دعاة له، ولم يدخروا وسعا في نصح قومهم وتعريفهم به، وما ذاك إلا أثر من آثار إعجاز القرآن في نفوسهم.

٥- كان -ولا يزال- لإعجاز القرآن الكريم آثار عظيمة تتجلىٰ في نفوس المؤمنين كاملي الإيمان، كلما ذُكِّروا بآياته؛ لأجل روعة إعجازه وجلاله ومهابته؛ فيزداد بذلك إيمانهم، وتطمئن قلوبهم، ويجتهدون في الطاعة ويبذلون فيها وسعهم؛ صلاة وتسبيحا وحمدا وخشية وخشوعا وخضوعا، وإنفاقا في سبيل الله سبحانه.

٦- لم يقتصر أثر إعجاز القرآن في النفوس علىٰ العرب الذين يفهمون لغته ويدركون إعجازه في فصاحته وبلاغته؛ وإنما يشمل غيرهم من العجم، حين تصفو نفوسهم من كدر المادة، وتتنزه عن الجحود؛ ولهذا وجدنا أثره العظيم في عصرنا الحديث، في نفوس كثير من العجم المعاصرين، الذين انبهروا بإعجازه العلمي، والتاريخي، والتشريعي .... الخ؛ فأعلنوا إسلامهم، تاركين وراءهم حياة مملوءة بالمتع والشهوات.

٨- من عظيم حكمة الله تعالىٰ أن جعل وجوه إعجاز القرآن متعددة ومتجددة، لتكون آثاره في النفوس باقية ومتعددة ومتجددة أيضا في كل عصر ومصر، وهذا ما رأيناه من خلال صفحات هذا البحث.

التوصيات: أوصي بالآتي:

١- أن تهتم الدوائر التعليمية في أزهرنا الشريف (في المعاهد والجامع والجامعة) بتدعيم دراسة إعجاز القرآن الكريم بالنماذج والشواهد الواقعية في القديم والحديث، وبيان آثار الإعجاز في النفوس والقلوب، حتىٰ يتم الربط بين العلم والواقع؛ فتزداد ثقتنا في كتاب ربنا، وتنعم نفوسنا بالأمن وقلوبنا بالاطمئنان.

٢- أن يقوم الدعاة بواجبهم في هذا الأمر، فيبنوا للناس وجوه إعجاز القرآن بطريقة تطبيقية سهلة، تزرع في الناس حبهم لهذا الدين واعتزازهم به وتمسكهم بدستوره العظيم، ليقوىٰ يقينهم به واطمئنانهم إليه، فيقبلوا علىٰ تنفيذ منهجه بحب قلبي ورضا نفسي وسعادة روحية.

هذا، والله تعالىٰ من وراء القصد، وأسأله سبحانه أن ينفعني بهذا العمل، وأن ينفع به كل من يقرؤه، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، والحمد لله في الأولىٰ والآخرة. وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم ..... تبارك الذي نزله

ثانيا: كتب التفسير وعلوم القرآن:

١. الإتقان في علوم القرآن الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢. إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم: للإمام أبي السعود، ط/ دار إحياء التراث العربي– بيروت - بدون تاريخ

٣. أسباب نزول القرآن للواحدي، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الثانية، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢م.

٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت، الأولىٰ - ١٤١٨ هـ.

٥. البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ دار إحياء الكتب العربية، عيسىٰ البابي الحلبي وشركائه، الأولىٰ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

٦. بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابي، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)]، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط/ دار المعارف بمصر، الثالثة، ١٩٧٦م.

٧. التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم، ت: د ضاحي عبد الباقي محمد، ط/ دار الغرب الإسلامي – بيروت، الأولىٰ - ١٤٢٣هـ.

٨. التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٩. التفسير البسيط للإمام الواحدي، ط/ عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٠هـ

١٠. تفسير التستري لسهل بن عبد الله التستري، جمعه: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولىٰ، ١٤٢٣هـ

١١. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩هـ.

١٢. تفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٣. تفسير القرآن الكريم لابن القيم، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، ط/ دار ومكتبة الهلال – بيروت، الأولىٰ، ١٤١٠هـ.

١٤. التفسير الكبير: للإمام الرازي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثالثة ١٤٢٠هـ.

١٥. تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) لأبي منصور الماتريدي، ت: د. مجدي باسلوم، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الأولىٰ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

١٦. التفسير الوسيط للقرآن الكريم: للدكتور سيد طنطاوي، ط/ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ.

١٧. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولىٰ، ١٤٢٠ه، ٢٠٠٠م.

١٨. الجامع لأحكام القرآن: للإمام القرطبىٰ، تحقيق: أحمد البردوني، ط/ دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

١٩. حاشية الشهاب علىٰ تفسير البيضاوي المسماة: (عناية القاضي وكفاية الراضي علىٰ تفسير البيضاوي) لشهاب الدين الخفاجي، ط/ دار صادر – بيروت، بدون تاريخ.

٢٠. حاشية الطيبي علىٰ الكشاف، المسماة: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، للإمام الطيبي، ط/ جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الأولىٰ، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م.

٢١. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: للسمين الحلبي، تحقيق د/ أحمد الخراط، ط/ دار القلم، دمشق.

٢٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الآلوسي البغدادي، تحقيق: علي عطية، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولىٰ، ١٤١٥هـ.

٢٣. زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الأولىٰ - ١٤٢٢ هـ.

٢٤. السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: للخطيب الشربيني، طبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٢٥. الظاهرة القرآنية، للأستاذ/ مالك بن نبىٰ، ترجمة الدكتور/ عبد الصبور شاهين، ط دار الفكر، دمشق، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢٦. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط/ دار الكتب العلمية، الأولىٰ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

٢٧. غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، ت: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الأولىٰ – ١٤١٦ هـ.

٢٨. غريب القرآن لابن قتيبة، ت: أحمد صقر، ط/ دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٢٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام الشوكاني، ط/ دار ابن كثير، بيروت، الأولىٰ، ١٤١٤هـ.

٣٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام الزمخشري، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة – ١٤٠٧ه.

٣١. لباب التأويل في معاني التنزيل: للإمام الخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولىٰ – ١٤١٥هـ.

٣٢. مجاز القرآن لأبي عبيدة، ت: محمد فؤاد سزكين، الناشر: مكتبة الخانجىٰ، القاهرة، ١٣٨١هـ.

٣٣. محاسن التأويل: للإمام القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط/ دار الكتب العلمية، الأولىٰ، ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

٣٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للإمام ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط/ دار الكتب العلمية، لبنان، الأولىٰ، ١٤٢٢ه

٣٥. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية. ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة، ١٤١٦هـ –

٣٦. معالم التنزيل في تفسير القرآن للإمام البغوي، ت: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الأولىٰ ١٤٢٠ هـ.

٣٧. معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط/ جامعة أم القرىٰ – مكة المكرمة، الأولىٰ، ١٤٠٩هـ.

٣٨. معاني القرآن وإعرابه: للإمام أبي إسحاق الزجاج تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، ط/ عالم الكتب، بيروت، الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.معترك الأقران

٣٩. معاني القرآن: للإمام أبي زكريا الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرين، ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الأولىٰ.

٤٠. المفردات في غريب القرآن: للإمام الراغب الأصفهانىٰ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط/ دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ.

٤١. مناهل العرفان في علوم القرآن، للزُّرْقاني، ط/ مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة. بدون تاريخ.

٤٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط/ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٤٣. النكت والعيون: للإمام أبي الحسن الماوردي البصري، تحقيق: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ.

ثالثا: كتب الحديث الشريف وشروحه:

١. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني، ط/ المطبعة الكبرىٰ الأميرية، مصر، السابعة، ١٣٢٣هـ.

٢. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: للحافظ أبي بكر البيهقي، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولىٰ – ١٤٠٥ه.

٣. شعب الإيمان: للحافظ أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، ط/ مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م.

٤. صحيح البخاري: للإمام البخاري، تحقيق: د/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط/ دار طوق النجاة، الأولىٰ، ١٤٢٢ه.

٥. صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

٦. الكوثر الجاري إلىٰ رياض أحاديث البخاري، للكوراني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الأولىٰ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، ط/ مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٨. المستدرك علىٰ الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولىٰ، ١٤١١ه، ١٩٩٠م.

٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة، الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

رابعا: كتب السيرة والتاريخ:

١٠. الخصائص الكبرىٰ للسيوطي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

١١. سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد، للصالحي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ط/ دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الأولىٰ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

١٢. السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق: مصطفىٰ السقا وآخرين، ط/ مصطفىٰ البابي الحلبي، مصر، الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.

١٣. الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ للقاضي عياض، مع حاشية الشمني، ط/ دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

١٤. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للقسطلاني، ط/ المكتبة التوفيقية، القاهرة– مصر.

خامسا: كتب العقيدة:

١٥. الإسلام دين الله تعالىٰ وفطرته التي فطر الناس عليها لأبي العزائم، ط/ دار المدينة المنورة، القاهرة، بدون تاريخ.

١٦. الإيمان، "ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته"، لأبي عبيد القاسم بن سلاّم، تحقيق: الألباني، ط/ المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

١٧. السنة، لأبي بكر الخلال، تحقيق: د. عطية الزهراني، ط/ دار الراية، الرياض، الأولىٰ، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

١٨. شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني، ط/ دار المعارف النعمانية، ١٩٨١م.

١٩. الشريعة، لأبي بكر الآجري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، ط/ دار الوطن، الرياض، الثانية، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م.

سادسا: كتب الفقه:

٢٠. المغني لابن قدامة المقدسي، ط/ مكتبة القاهرة الطبعة: بدون تاريخ.

٢١. ثامنا: كتب المعاجم واصطلاحات الفنون:

٢٢. تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولىٰ، ٢٠٠١م.

٢٣. لسان العرب- للإمام محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط/ دار صادر، بيروت، ط/ ١، بدون تاريخ.

٢٤. معجم مقاييس اللغة: لابن فارس تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/ دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٥. تاسعا: كتب أخرىٰ عن المهتدين بالقرآن:

٢٦. أوربا والإسلام لشيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ عبد الحليم محمود، ط/ دار المعارف، بالقاهرة، الرابعة، بدون تاريخ.

٢٧. الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء لمحمد كامل عبد الصمد، ط/ الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الأولىٰ، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٢٨. سلسلة قصص مشاهير المهتدين، الصادرة عن لجنة التعريف بالإسلام بجمعية النجاة الخيرية، بالكويت.

٢٩. القرآن المذهل، ترجمة وإصدار موقع نصرة رسول الله .WWW.rasoulallah.net

*****

فهـرس الموضـوعات

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة: في أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهجه.	٨٧٠
التمهيد: مقدمات حول إعجاز القرآن الكريم.	٨٧٧
المبحث الأول: معجزات الأنبياء السابقين وأثرها في النفوس.	٨٨٢
المبحث الثاني: أثر إعجاز القرآن الكريم في النفوس.	٨٨٨
المطلب الأول: أثر إعجاز القرآن في نفوس المشركين.	٨٩٠
المطلب الثاني: أثر إعجاز القرآن في نفوس أهل الكتاب.	٩٠١
المطلب الثالث: أثر إعجاز القرآن في نفوس الجن.	٩١٤
المطلب الرابع: أثر إعجاز القرآن في نفوس المؤمنين.	٩٢٠
المطلب الخامس: أثر إعجاز القرآن في نفوس غير المسلمين من العجم المعاصرين.	٩٣٧
الخاتمة	٩٤٦
فهرس المصادر والمراجع	٩٥٠
فهرس الموضوعات	٩٥٨